أسعد باسيلي باشا

حياته وأعماله

بقلم

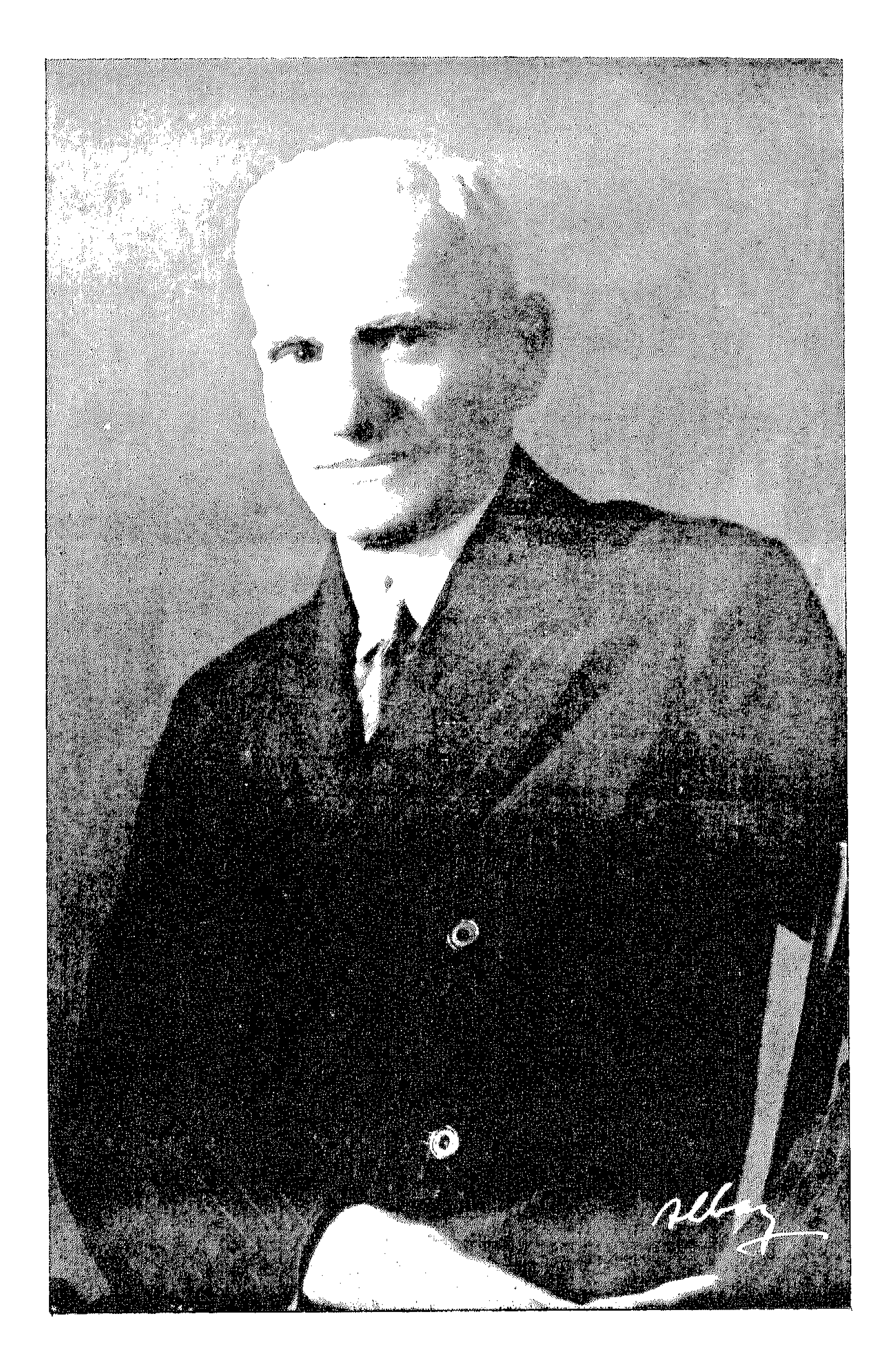
أحمد عارفيه

أسعد باسيلي باشا

حياته وأعماله

بقلم

أحد عارفيه



المغفور له اسعد باسيلي باشا

مقدمة

للأستاذ فؤاد صرّوف رئيس تحرير المقتطف

كتبتُ من سنتين في حديث اذيع من محطة فلسطين اللاسلكية في يوم الذكرى الثانية عشرة لوفاة الدكتور يعقوب صروف العبارة التالية : « والواقع ان الحياة عمادها صدق الصالحين وقدوتهم ، وحكمة الملهمين وابداعهم ، واقدام الرواد وفناء اشخاصهم الفانية في سبيل الخير العام . هم ينقونها من الادران ، ويخففون وقع عبئها على الكواهل . بل ان الحياة لا تعذب وقد لا تحتمل الا في صحبتهم أو في كنفهم . ومن محاسن الحضارة الحديثة ، انها تتيح لنا صحبة الانبياء والفلاسفة والشعراء والعلماء والرواد ورجال الاعمال في مؤلفاتهم وسيرهم وما يخلفونه من آثار مادية ومعنوية »

وذكرى الدكتور صروف مقترنة في ذهني بذكر اسعد باسيلي لغير سبب واحد . فقد كانا من طراز واحد عال بين الرجال ، ذلك

الطراز الذي تعذب الحياة وتسمو في صحبته أو في كنفه ، توقد ذهن ووداعة خلق ، وحكمة بغير تحكم ، وحب صادق للخير. وقد بدأ كل منهما حياته معنياً بشؤون الفكر الرفيعة . ومضى الدكتور في طريقه الى آخر الشوط . وتحول اسعد باسيلي الى الاعمال الكبيرة . فبز فيها الاقران ، ولكنه بقي الى المرحلة الاخيرة في حياته ، يهتم بما شغفه في حداثته . ويحن اليها كما يحن ساكن المدينة المزدحمة الى مراتع صباه الفسيحة .

ooo

وقد تشرفت بمعرفة اسعد باسيلي ، في السنوات الاخيرة من حياته . بعد ما جمع ثروة ضخمة شق طريقه اليها بالفكر الثاقب والبصر النافذ والاكباب على العمل والاستقامة وحسن المعاملة ، وبعد ما احرز منزلة عالية في عالمي الاقتصاد والاجتماع ، رفعته الى مقام الطليعة بين كبار رجال الاعمال من وطنيين واجانب . ولكن لم يتح لي الاجتماع به مرة ما ، في داره العامرة أو في دار المقتطف ، الا واستشففت من حديثه ذلك الحنين الى امور الفلسفة وشؤون الادب التي كانت في مركز الدائرة من نشاط شبابه . وكنت اسوق الحديث قصداً الى ما نشره في مجلة الجامعة المشهورة التي كان مواطنه فرح انطون يصدرها ، لان وداعته كانت تأبى عليه ان يقول « قلت ونشرت »

وقد بلغ من اعجابي بما كتب ، حتى بعد إنقضاء ثلاثة عقود عليه

ان استأذنته في نشر بعضها فوافق متلكئاً لان الزمن — على حد تعبيره — دار دورته وخالف ما كتب ونشر من سنين وراءه . ولكن من يطالع فصل « الدين والعلم » المنشور في المقتطف — نقلاً عن الجامعة — والمعاد نشره في آخر هذا الكتاب — يتبين ان اسعد باسيلي المالي الكبير . عالج في شبابه موضوعاً من ادق الموضوعات التي تمضّ عقول المفكرين في هذا العصر ، فنفذ الى الاصول فيه ، بحيث تقرأ الفصل اليوم فيأخذك الاعجاب بالفصل وصاحبه .

ooo

وكانت له مشاركة دقيقة في مسائل فنون الجمال ، وذوق عال في شؤون الادب ، صقلا بالتجربة والرحلة ومداومة المطالعة في الآداب العربية والغربية . واذكر انني كنت في الاسكندرية يوماً ، وكان قد عاد من عهد قريب من رحلة واسعة في اوربا فحدثتني نفسي بزيارته لاستطلاعه رأيه في نواح من الازمة الاقتصادية العالمية ، فرحب بي في داره الفخمة قبيل نزوله الى مكتبه فشربت معه فنجاناً من القهوة ، وتكلم في الموضوع الذي قصدته من اجله ، في حسن تحليل ولطف بيان ودقة ملاحظة ، قسرتني على الاصغاء لانني شعرت وهو يستفيض في حديثه ، ان هذا الكلام ليس مكتوباً في كتاب ، وانما هو خلاصة تفكير وتجريب ومشاهدة . انه قطعة من الحياة .

واقول « قسرتني على الاصغاء » لان على جدران الحجرة التي

جلسنا فيها ، آيات من فن التصوير الرائع وفي احدى زواياها تحفة من فن الخشاب والنجار . ومع ولعي بنواحي الفنون وبدائعها ، كان حديث محدثي اجمع لعنايتي من صور الائمة وتحف المبدعين . وحانت منه التفاتة ، فلمحني احدق في صورة ، ولم يكن ذلك سوء ادب مني . وانما كانت بدوة من بدوات الذهن لا سلطان لي عليها . فصرف الحديث في لباقة ، الى الصورة ومصورها . واذا المحدث الاقتصادي والمالي المحقق ، قد غمرته نزعة الاديب الفنان بموجة من البشر طفت على قسماته ، فانصرفنا عن نوائب الاقتصاد الدولي وخفاياه القاتمة الى روائع الفنون — هذه الصورة من تصوير فلان . وهذا تاريخها وتلك مزاياها الفنية ، وهذه تختلف عنها في النمط والمعنى وفي توقيع الظل والنور على اجزائها ، وهذه المائدة من القرن الثامن عشر صنعها فلان الفرنسي المشهور في عهد لويس السادس عشر ، والبرونز الذي على زواياها وقوائمها يعتبر آية في نوعه . . . الخ . فأعجبت ولم ادهش . فقد انعم الله عليه بالمال فتخير من آيات الفنون طائفة من ابدعها ، ودفعته سليقة المفكر والفنان فيه الى تقصي تاريخها ومزاياها الفنية . ولكنني دهشت حقاً عندما علمت في اثناء تحول جديد في الحديث ، ان مضيفي الكريم متتبع الآثار الادبية والعلمية الحديثة باللغة العربية ، سواء ما ينشر منها كتباً أو رسائل في الصحف اليومية والاسبوعية والشهرية . دهشت لانني كنت اظن انه طوى العناية بهذه الامور ، منذ ما شغلته كبار

المسائل الاقتصادية والمالية ، ولكنني تبينت خلال دقائق قلائل ، انه قرأ طائفة كبيرة منها ، وله فيها رأي دقيق ، وذوق رفيع ارهفته الدراسات الفلسفية والادبية في حداثته والمطالعات في كهولته، والعجيب ان اعماله لم تمنعه عن مواصلة المطالعة . وذلك لانه يجد فيها على ما قال لي « منأى عن متاعب الحياة ومعواناً له على فهم نواحيها والتغلب على ما يعترض سبيله من عقبات ومشكلات فيها » . وليس هذا بالرأي الغريب ، ولا بالقول المصطنع ، فالفلسفة تشحذ الفكر ، والادب يرتق الطبع ، وكلاهما يمكنان البصيرة من النفوذ الى اللباب واطراح القشور .

كنت اعلم ان اعماله تقتضي منه الذهاب الى مقر اعماله في المدينة ، فعز عليّ ان أضيع عليه وقتاً هو حقاً « من ذهب » ولكنه كان يستبقيني كلما هممت بالانصراف ، وكأنه لقي في تحدثه اليّ نسمة يتنشقها من جو يؤثره لو استطاع ، على كل ما غيره من الاجواء .

ولا أظن انه وصل الى مكتبه قبل منتصف النهار .

ooo

قلت ان ذكراه مقرونة في ذهني بذكرى الدكتور صروف لغير سبب واحد . وفي ما تقدم نواح مما كنت انعم به في ظلها . اما السبب الآخر فهو عناية اسعد باسيلي بتخليد ذكرى يعقوب صروف .

بعد وفاة الدكتور صروف في صيف ١٩٢٧ تألفت لجنة في مصر

من الفضلاء والعظماء لتخليد ذكره . وطلب الى اسعد باسيلي ان يكون امين صندوقها ، فرحب بالطلب ولباه ، ووضع له اسس العمل على ادق نظام . وكان لقبوله تولي هذه الناحية من العمل منزلة عظيمة في نفوس قراء المقتطف مريدي احد منشئيه في مصر والبلدان العربية اللسان . وتبرع للمشروع بخمسين جنيهاً . فلما تم صنع التمثال وقاعدته . ورفع الستار عنه بعد وضعه في مكتبة جامعة بيروت الاميركية ، ظهر ان ما تبرع به المتبرعون يكفي لتوفية جميع النفقات ، بغير ان يمس المبلغ الذي تبرع به اسعد باسيلي . فقابلته وطلبت منه ان يقف هذا المبلغ على اثر ادبي ينشره المقتطف هدية منه الى ذكرى صروف .

فقال على الفور : — ان مبلغ الخمسين جنيهاً لا يليق بذكراه . فليكن المبلغ مائة جنيه . ولعلي اجددها كل سنة .

وطلب الي ألا يذكر اسمه ، ولكني أصررت على ان الفضل يجب ان يعلن . والى هذه الاريحية مرد الكتابين النفيسين اللذين نشرهما المقتطف الاول « صقر قريش » والثاني « نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية » .

ooo

لقد اجاد الاستاذ شارل شميل صاحب « البصير » في قوله :

« قيل وسيقال بحق عن الراحل الكبير انه كان عصامياً ، والعصاميون كثيرون في عالم اتسعت فيه ميادين النشاط للمجدين

الاذكياء . وقيل وسيقال عنه بحق انه كان كريم الاخلاق ، وكرم الاخلاق فضيلة غريزية لم يكن صعباً التحلي بها على من قدر له ان يصل الى المنزلة المالية التي بلغها اسعد باسيلي باشا . ولكن الفقيد كان اكثر من هذا وذاك . فقد امتاز على العصاميين والسراة بميزة خاصة عرفها المقربون منه الذين تتبعوا ادوار حياته وشهدوا كفاحه ، وهي عظمة طبيعية ارتقت به الى مستوى نفسي لم تبد عنده الثروة إلا كواسطة او اداة لا قيمة لها في حد ذاتها ، وكان كلما علا شأنه في عالم العمل وتوطد مركزه المالي ، ازداد رسوخاً في هذه الميزة وضاعف السعي للتحرر من تلك السلاسل الذهبية التي تقيد النفوس الضعيفة وتشل فيها الشعور المستقل » .

وهذا هو التصوير الصادق لنفسية الراحل الكريم .

ان ذكراه نفحة عطرة ، وحياته قدوة صالحة . ففقده خسارة كبيرة وسيرته كسب عظيم .

٧ ابريل سنة ١٩٤١ — فؤاد صروف

تمهید

نحن اليوم نعيش في عصر عملي يتطلب النشاط والدأب ، والعمل على النماء المادي . ويبعث على الاستقلال الصناعي والتجاري ، لان حياة الامم اصبحت الآن في الاسواق ، وفي ايدي القائمين بها ، والتاجر الكبير المتجر في هذه الايام درجة من درجات المقياس الذي يعلو او يهبط بحياة الامة التي هو منها . وقد يستطيع السياسي الآن ان يقلب شأناً من شؤون الحياة الاهلية في شعبه ولكن التاجر — وهو اعظم من السياسي في هذا العصر — هو الذي يستطيع وحده ان يقف في وجهه ويحول بينه وبين مأربه ، وهم يقولون ان انجلترا لم تدخل هذه الحرب المخيفة الا بعد ان سبرت غور تجارها وماليبها ، واهل العمل والقوة الصناعية فيها ، اذ كان هؤلاء هم جيوب الامة وهم خزائنها ، وهم كل ذخائرها واسلحتها ، والامة التي تكثر منهم وتزيد لنفسها في

عدادهم ، هي التي تتسلح بأكبر الاسلحة في معركة الحياة الدائمة الحركة والشجار . والناس اليوم يستبشعون الحرب ويستنكرون بلاءها ، لكثرة الدماء المسفوحة في ميادينها ، والثروات العظيمة الضائعة في سبيلها ، ولكن الحرب كانت قائمة قبل ان تنشب هذه الحرب وتقع . غير انها لم تكن حرباً يلبس لها الناس الاردية العسكرية ويحشدون لها المدافع والنخائر الحربية ، وانما حرباً تقوم في الحوانيت ، وتجري فوق المكاتب ، وفي بيوتات التجارة والمال ، وكان يتذرع اهلها فيها باسلحة أدق من المدفع ، وأحذق من القنبلة ، فلما سئمت الامم هذه الحرب التجارية الخفية الصامتة ، انطلقت تثير حرباً ضاجة غير خافية ، ولا يزال التجار وأهل العمل والمال هم الذين في ايديهم انهاؤها او اطالة عمرها .

ونحن شعب أولي في كل ما يتعلق بالعمل ، لاننا لا نزال بعد في دور الطفولة الاجتماعية ، ولا يزال يعوزنا النشاط العملي الذي نستطيع به ان نكافح القوة التجارية التي يطالعنا بها الاجنبي في الاسواق المالية ، ولسنا نملك المواهب التي تجعل التاجر الاوروبي المثل الاعلى في التجارة لاننا لا نستطيع ان نجاريهم في بسيكولوجية التجارة ، لان التجارة من الاعمال التي لا غناء لها عن تعرف اسرار النفوس ونزعاتها ، ونواحي التأثير فيها ، واساليب اقناعها وارضائها ، ونحن نفقد كذلك قوة الاعلان والمزاحمة في متاجرنا ، اذ كنا نقنع بالسكون والصمت والتجارة من الصناعات التي لا بد لها من الضجة والمناداة والصراخ في

آذان الجمهور ، واكتساب البقاء في ذاكرته ، ونحن نفقد الأثرة التجارية التي تجعل الانجليزي لا يشتري الا من اليد الانجليزية ، والمصنوعات الانجليزية وكل ما هو انجليزي ، ومن هنا اصبح التاجر الوطني الذي ينجح في وسطنا هذا ويزكو متجره ، رجلاً يحمل ارادة قوية مدهشة ، وهو من اكبر العارفين بعلم النفس لانه لم ينهزم في السوق التجارية المتلئة بجبابرة تجار الغرب ودهاته ، وعرف كيف يقاوم العوامل الاهلية العديدة التي تعمل على محاربته وهزيمته . ولهذا كانت البيوتات التجارية العملية قليلة لدينا ، لانها فقدت التشجيع الاهلي الذي يعينها على ان تجاري البيوتات الاجنبية المتكاثرة العديد بيننا ، ولان كل عمل صالح في هذا البلد كبير الاثر في الحياة المصرية ، لا يجد شيئاً من عناية الشعب واحتفاله والمؤازرة له ، اذ كنا نعيش عيشة مفككة الرابطة ليس عليها اثر ما من الظواهر الاجتماعية التي نراها في الشعب الحي المتماسك النشيط ، ومن هنا كان خليقاً بنا ان نتوفر على تشجيع هذه البيوتات التجارية ومعاونتها على عملها ، وبث روح التنافس بين اصحابها ، حتى تكون لنا شخصية تجارية صحيحة ، وحتى تحبس الثروة الاهلية في ايدينا ، ونصبح بعد زمن كما يفخر الانجليز اليوم شعباً من اصحاب الحوانيت

ooo

وبعد فان الحياة المادية ذات العواقب الملموسة لا تنتخب في الغالب

رجالها من رجال التفكير ، لان مهمة نشر المعرفة وتفهم الآراء تخلد اربابها ولكنها مع جليل اثرها في الانسانية ، لا تستطيع ان تنافس في مضمار الحياة الادبية تلك المهمة التي يؤديها للعمران اولئك الذين سخروا البحار وسيطروا على الاركان القصية في العالم لغرض التضامن الاقتصادي والمادي ، اما المثل الذي نريد ان نسوقه الى الناس فقد شئنا ان نتخيره من بين رجال التجارة العصاميين الذين كانت لهم مواهبهم الفكرية والادبية ومزاياهم الشخصية مصدر استرشاد ونجاح في حياة العمل ، هذا الى ان العصاميين في هذا البلد قليل ، لان العصر لا يعين على العصامية ، ولا يساعد على انتاجها ، وانما يجتهد في مكافحتها وخذلانها ، لان الناس جبلوا على ان يكونوا حرباً لكل فرد يريد ان يسمو عليهم قوة وعملاً ، ويفضلهم ارادة واستقلالاً ، فاذا رأيت اليوم عصامياً بينهم ، فاعلم انه استطاع ان يهزم العصر باسلحة أشد من اسلحته ، وعرف كيف يتخلص من كل ضروب الكفاح والعداء التي حشدها الجيل لمقاومته .

ونحن ازاء هذا قد عولنا على ان نفرد هذه الصفحات لحياة المرحوم اسعد باسيلي باشا واعماله ، فاذا اكتملت عادت معرضاً طيباً لحياة حافلة بجلائل الاعمال وقامت تاريخاً رفيعاً يستبق التاريخ العام ، وانضر ما في التاريخ فصوله التي تتناول الشخصيات البارزة في عهده ، وما بعد ذلك يروح قيداً لحياة القطيع وسجلاً لمادية عيشهم ، وفهارس بالوان طعامهم

وشرابهم ، ويوميات واحدة للاسعار الرقية في معايشهم ، ومدونات لاحداث شهورهم واعوامهم ، وهي فصول في التاريخ لا يستروح اليها القارىء بل يقفزها قفزاً حتى يقف بصورة عظيم هنالك او نابغة ، فيستأني لدرس ، ويستمهل لموعظة ، فلا شيء احب الى النفس من معرفة النبوغ في اهله ، وتقصي اسرار العبقرية في ذويها ، وكتاب الحياة الدنيا منذ قامت في هذه الارض هو كتاب النوابغ والافذاذ والعظماء . . . .

٣٠ دسمبر سنة ١٩٤٠ — **نقولا شكري**

شخصية باسيلي باشا وأخلاقه

رجل مثقف ، قوي الارادة ، واسع أفق التخيل ، شديد الملاحظة ، متسعر الذكاء ، أوتي من وثاقة العقل ، وقوة النفس ، وشدة الطبع ، وسعة الحيلة ، ما لم يرزق كثير .

تراه فترى من النظرة الاولى انك على مقربة من رجل من الطراز الاول في العقد السابع من العمر ، نحيف الجسم ، معتدل القامة ، متواضع السمت كثير الحركة ، تبدو عليه مخايل الثقة العظيمة بالنفس ، والرغبة العميقة في ان يعمل دون ان يتكلم ، على وجهه الباسم النبيل الهدوء العجيب والرقة والحزم معاً ، يحدثك في صوت هادىء وبعبارات سهلة ، فيبهرك بوفرة معلوماته لانه دائم الاطلاع على الحركات الفكرية في العالم : فهو يعرف كل شيء ، لانه قرأ كل شيء ، فلا تفوته بادرة من حوادث العالم ، وقد درس كل فلاسفة عصره وكتابه العظام ، من اميل زولا وسبنسر الى تولستوي .

وكان ، رحمه الله ، الى هذا كله حلو الحديث ، تغمره طبيعة الخير من جميع نواحيه ، فما رأيته سئل المعروف من جاهه او ماله الا بذله لمن يعرف ولمن لا يعرف ، ولمن يحب ومن يكره ما دام قادراً على بذله ، وكان اذا جلس في مجلس تصدر فيه وصار منه كالمركز من الدائرة ، وقد كانت له صلات ومعرفة في اكثر بلاد اوروبا لاسيما فرنسا التي كان كثيرون من رجالها واعاظمها من اصدقائه .

وكان باسيلي باشا رجل كفاح ، كان يناضل لانه كان حياً جياش الطبيعة على مقربة من الميدان الذي يدعوه الى النضال ، وهو — لانه جياش الطبيعة — لم يكن اصلح منه للعطف والصداقة وحسن المودة والانس بالناس والارتياح الى المعاشرة ، وقد حفظ قلبه الكبير ما اودعته الفطرة من ذخيرة العطف الزاخر الى آخر ايام الحياة .

وقد تم له ما ليس يتم لجميع المناضلين من شدة المراس . ومضاء العزيمة ، وجرأة العمل والصراحة ، فهو لا يرائي ولا يطيق الرياء ، ومن هوى الصدق في نفسه ما يحقق بيت ابي الطيب اذ يقول :

ومن هوى الصدق في نفسي وعادته

تركت لون مشيبي غير مخضوب

ولم يكن ، رحمه الله ، يستبد برأيه ، وكان كثير الصبر على مناقشيه ، اذكر انني لقيته يوماً وكان البحث يدور حول انتخاب اول

هيئة للمجلس الطائفي للروم الارثوذكس المصريين فسألني قائلاً :

— ما رأيك في جعل الانتخاب قاصراً على مشتركي المعاهد الطائفية دون سواهم ؟

قلت :— رأيي ان المجلس يمثل الطائفة باسرهـا فلا معنى لجعل الانتخاب مقصوراً على فئة دون اخرى ، ثم ان هذا التفريق في المعاملة يحوي بطبيعته الظلم وعدم التسوية بين ابناء الطائفة .

فلبث ، رحمه الله ، يناقشني فترة من الزمن بلا ضجر ولا استيـاء ثم قال :

— ولـكن اغلبية اعضاء المجلس التمثيلي لا ترى هذا الرأي .

قلت : — ولـكنك يا باشا زعيم الطـائفة والمسؤول عن عمل الآخرين .

فضحك طويلاً وقال : — صدقت . سوف احملهم على العدول عن هذا الرأي بالحجة والاقناع .

ولم يمضِ يومان حتى اعدت قوائم الانتخاب ودعي جميع ابنـاء الطائفة الى الاشتراك فيه .

ooo

وشخصية اسعد باسيلي باشا الى هذا كله فيها سهولة وفيها تعقيد ، وفيها جوانب لا تدق على الباحث ، وفيها جوانب تدق على المستقصي ولـكنها في الحالين شخصية الجيل التي لا تتكرر ، وهي شخصية فيها

ما يجتذب الاديب ، وما يجتذب الفيلسوف ، وما يجتذب التاجر ، وما يجتذب الباحث ويستهويه ، لانها جمعت اليها الواناً من الخصائص التي اتاحت لهـا ان تكون جذابة ، وان تكون مؤثرة في اولئك وهؤلاء . واني — مع عرفاني البـالغ بهذه الشخصية الـكبيرة — لن ازعم انني استوعبتها وتناولتها من وجوهها جميعاً ، لن ازعم ذلك فما هو بالهين ولا باليسير ان تضم هذه الصحائف اليسيرة خصائص هذه الشخصية كلها ، وما هو بالامر الهين ولا باليسير ان يكون البحث وراء هذه الشخصية وليد السرعة والايجـاز ، وانه لحق ان يكون اسعد باسيلي باشا في طليعة الشخصيات التي ابتكرها القرن العشرون . واني لارجو ان اكون موفقـاً في دراسته بعض التوفيق وألا يدخل في روع احد انني اعمد الى المبـالغة فما لشيء من هذا كله اكتب عن اسعد باسيلي ولـكني اتحدث عنه لانه كما اسلفت شخصيـة قلما تتكرر في جيل واحد .

ولم يكن اسعـد باسيلي من اولئك الذين يعيشون باطماعهم في ظل محدود ، وفي موطن محدود ، وانما كانت له اطماع الرجل الذي انتبه الى خصائصه ، وفطن الى ما فيها من جلال ، وما لها من روعة ، فاتخذ منها مشعلاً لنفسه ، وكان هذا المشعل باهر الضوء ، رائع الشعاع ، ثم كان من شأنه ان يمضي في كنف هذا الضوء ، وان تكـون خطواته لا تعثر فيها ولا التواء . . .

نشأته وبيئته

ولد اسعد باسيلي باشا في اسكلة طرابلس الشام في اسرة كريمة من ناحية ابيه وناحية امه ، ولما شب عن الطفولة ورأى والده المرحوم يعقوب باسيلي ان يأخذ ابنه حظه من علوم الدنيا ألحقه بمدرسة الطائفة الارثوذكسية فبز بذكائه وتحصيله جميع قرنائه فيها ، وقد كان حقاً ان تتهادى طفولته في افانين من التربية الصحيحة ، وتطمح به نفسه الى افق الادب العالي ، فاخذ يختلف الى مجالس الادب والعلم وكان من روادها جماعة من النابهين لمعت اسماؤهم في ميادين الادب والشعر نذكر منهم فضيلة الشيخ عبد القادر المغربي رئيس المجمع العلمي بسوريا والعلامة المرحوم الشيخ رشيد رضا صاحب المنار والكاتب الاجتماعي الكبير المرحوم فرح انطون والشاعر المطبوع المرحوم عبد الحميد الرافعي والاديبان جرجي وصموئيل يني صاحبا المباحث . وقلما كانت

تعقد حلقة من حلقات الادب والشعر في تلك المدينة الا كان الفتى اسعد باسيلي في مقدمة حضورها . فتهيأت له اسباب النبوغ وجلال الذكرى منذ حداثته ، وحرص في اثناء دراسته ان يشبع رغبة نفسه في دراسة آداب اللغتين العربية والفرنسية على شيوخها المبرزين ، وبعد ان ارتشف من هذا المنهل العذب أضفى عليه النبوغ حلة من نباهة الصيت في مطلع شبابه .

والى هنا تمت حياته كطالب ، وهي وان كانت مثلاً اعلى في حياة الطلبة بالذكاء الجم والتحصيل الوافر ، الا ان العلم بهـا كان محصوراً بطبيعة الحال في الدائرة التي يعيش فيها بين آله والمتصلين بهم ، ثم لم يمضِ بعد ذلك غير قليل من الزمن حتى تفتحت حياته للناس جميعاً اذ انخرط في سلك الجمعيات الطائفية واختير للاشراف على بعض مدارسها

ولقد كانت مرحلة شبابه مقترنة بهذا البعث الهائل لتلك الرسالة الضخمة ، رسالة التجديد الشامل في بعض مراميه ، المتحفظ في كثير من اغراضه ، وقد احتمل نصيبه من ادائها حين تولى الاشراف على التعليم واخذ يراسل امهات الصحف في بيروت والقاهرة .

واكبر الظن عندي ان تأثير هذه المرحلة كان التأثير القوي الفعال فهذه شخصية اسعد باسيلي قد بدأت تغمر الفضاء الرحيب متجـاوزة حدود مدينة طرابلس ، ومتجاوزة مع ذلك حدود الطلاب الذين بهرهم هذا القائد الشاب . ونحن في هذه المرحلة حيال ناحيتين : تتمثل الناحية

الاولى في جهاده كباحث واديب كرس حياته لهدم القديم ولبث الآراء والمبادىء الجديدة . وتتمثل الناحية الثانية في الحقبة القصيرة التي قضاها في تجارة الاخشاب مع شقيقه المرحوم انطونيوس باسيلي في طرابلس الشام وانها لناحية جزيلة الأثر في حياته ، فقد استطاع بمواهبه الرائعة ، وباعماله الحافلة باروع مشاهد الصدق والاستقامة ان يوقظ في بني وطنه عاطفة التوقير لمركزه التجاري .

هاتان الناحيتان — ومكانة اسعد باسيلي منهما هي مكانته — قد ايقظتا في شخصيته الجوانب التي اصارته فيما بعد رجلاً على هامة الرجال

ولعل فرح انطون كان اقرب الناس الى صديقه اسعد باسيلي فقد تلازما في صباهما حتى ليندر ان يفترقا ، اذ وحدت المبادىء بين قلبيهما وقد اشار فرح في روايته : « الوحش . الوحش . الوحش. . . » الى صديق كان يرافقه في رحلته الى شمال لبنان حيث وضع هذه الرواية وبضع روايات اخرى خلدته ولم يكن هذا الصديق سوى اسعد باسيلي الذي كان يعاونه في تفكيره ويجاريه في بحوثه ودراساته .

وهكذا نجد ان نشأة باسيلي باشا كانت نشأة ادبية . فقد بدأ حياته في مطلع شبابه بتعهد تعليم الناشئة وتهذيبها في مسقط رأسه ، وكانت مجالس الادب بطرابلس تعج بجلة العلماء والادباء البارزين في عهده . فنشأته وبيئته جعلتاه يحتفظ بطابع الفيلسوف في وضع نظريات عمله ، وبطابع الشاعر في تقدير الحياة والتمتع بها . في حين ان عقم التفكير

وجفاف الطبع يسيطران على معظم رجال الثروة بخاصة في هـذه الاقطار التي لم تزل في بدء نهضتها ولم يجمع الارتقاء بعد في طبقة اهل اليسار بين حكمة انماء الثروة وحكمة التمتع بما في الحياة من مباهج التفكير والشعور والتضامن الانساني .

في ميدان الأدب
أديب نابه

كان اسعد باسيلي اول ظهوره في الحياة العملية اديباً سليم التفكير وللادب تأثير قوي على النفس حتى لا يستطيع المشتغل به ان يتخلى عنه الى حرفة اخرى. ولعل اشتغاله بالادب كان نتيجة شعوره القوي بانه خلق لرياسة عمل واسع وان من حقه ان يعرب عن آرائه وان يرشد وان يتولى توسيع النقاط الغامضة فيما يلحظه ويسمعه من احوال الناس واحاديثهم، فلم يكن الادب سبيله الى الحياة، وانما كانت ارادته وقوة شخصيته وذكاؤه رأس نجاحه.

فانت ترى ان هذا الرجل القدوة بين رجال الاعمال عند ما اراد ان يضع اساس مجده المادي كان يعيش بذهنية رجل بحاثة قوي الميل الى الاشتغال بالدراسات الفلسفية الرفيعة، وفي وسع الذين يميلون الى مراجعة الابحاث العلمية التي كانت تنشر في ابان النهضة الاخيرة لهدم

القديم ولبث الآراء والمبادىء الجديدة وعلى الاخص في مجلة الجامعة التي تولى اصدارها الكاتب الاجتماعي الكبير المرحوم فرح انطون في سنة ١٨٩٨ ، نقول في وسعهم ان يطلعوا على نخبة قيمة من الموضوعات والآراء الجريئة التي كان يجاري فيها مذهب الفيلسوف سبنسر ومذاهب غيره من الفلاسفة ويبني على احكامهم .

ونعتقد انه لو خير وقتئذ ان يكون ذلك البحاثة المشتغل بالمباحث العالية لما كان اقل توفيقاً ، وربما كان نجاحه يعود على الجيل بنتائج اجل من نجاح الكثيرين من المعاصرين .

اذن لم يسلك اسعد باسيلي سبيل العمل المادي بعقلية محدودة كسائر المشتغلين بالتجارة وكان تخليه عن سبيل العلم والادب يرجع الى مذهبه الوضعي وعقيدته التي لا تؤمن الا بالحقائق الملموسة . على ان مذهبه الوضعي باعتباره من رجال الاعمال لم يحل دون تدينه وصدق ايمانه وهو ممن يرون « ان للدين اصولاً عميقة في الانسان لا سطحية كما يتوهم البعض وان هناك حقيقة اساسية قام عليها بنيان الاديان »

ثم انظر اليه يقول في ختام فصل ممتع منشور في الجزء الاول من السنة الثالثة من مجلة الجامعة :

« وهناك ملاحظة اخرى لا ينبغي ان نضرب صفحاً عنها وهي ان العلم مهما اتسعت دائرة اكتشافاته فهو عاجز عن ان يروي كل الارواء ظمأ العقل البشري الى المعرفة ، فمهما امعنا في الاكتشاف

العلمي فانه يبقى لدينا ولدى من يأتي بعدنا مسألة وهي : ماذا يوجد بعد ذلك ؟ ومهما تقدمنا في التعليل عن اصل الكائنات فلا يمكننا ان نجد مناصاً من هذا السؤال : ما الذي يعلل لنا التعليل نفسه ؟ فاذا كان العلم اشبه بدائرة تتسع شيئاً فشيئاً فنموه لا يكون من شأنه الا انه يزيد نقط اتصاله بالمجهول الذي يساوره من كل جانب ويترتب على هذا ان يوجد على الدوام طريقان ينتهجهما الفكر البشري وهما العلم والدين .

« اذن فالعقل سيشتغل في المستقبل كما يشتغل في الحاضر ليس فقط بالبحث عن الحوادث الوضعية وعلاقاتها بعضها ببعض بل بشيء لا يستطاع اثباته بالادلة الواقعة تحت الحواس ولا بد من افتراض وجوده عند النظر الى الحوادث واعتبار علاقاتها بعضها ببعض . ونتيجة هذا انه ما دام العلم وحده لا يستطيع ان يشغل جميع القوى الانسانية وما دام العقل يوجه انتباهه ابداً الى ما وراء حدود العلم فسيبقى محل للدين على الدوام لان الدين يمتاز بكون موضوعه وراء دائرة العلم والاختبار »

ooo

ولعله من المهم ان نشير الى ان نزعة الاديب اسعد باسيلي في جميع كتاباته كانت نزعة انسانية محضة ، وكان يدافع فيما يكتبه من الرسائل والمقالات الى مختلف الصحف والمجلات في بيروت والقاهرة عن القضايا العادلة ويخيل الينا ان هذا يرجع الى ما كان يشاهده من آثار

الظلم والجور في العهد الحميدي حيث استقرت هيبة الحكام وسطوة الرؤساء فكأن هذا يرشحه من مهده لكراهة الظلم والتمرد عليه .

ولعل اروع قطعة كتبها وسجل فيها ميوله الانسانية وتلك النزعات الفكرية النبيلة التي كانت تفعم ذهنه هي القطعة البديعة التي عثرنا عليها في العدد الثاني من السنة الرابعة للجامعة ففيها يقول :

« لقد اسرفت الامم في الأثرة والانانية وفي العصبية الجنسية التي يتمسك بها فريق كبير من اهل الامم المتحضرة . على ان هذه العصبية اكبر مظاهر ضعف المدنية الحاضرة فهي التي تجر الامم الى التطاحن لنيل غاياتها وهي التي تثير حروباً مهلكة ما كانت لتقع لولا هذا التعصب وتلك الأثرة . وما اشك مطلقاً في انه قد وجدت امم من قبل وبادت . أفنتها الحروب في سبيل اغراضها وما زال الآن في مجاهل افريقيا امم تسير في طريق الفناء لاخذها في حياتها بهذه الخطة ولئن كان هذا ممكناً تصوره يوم كانت الحدود الجغرافية حقيقة واقعة تفصل بين الامم وتجعل كلاً تعتز بكيانها وبجنسها وتجعل من لون اصحابها وسيلة لحرب من كانوا من لون آخر فلم يبقَ لهذا التصور اليوم محل بعد ان اصبحت الحدود الطبيعية لا حقيقة لها لاسباب اهمها تقدم المواصلات والتمازج العقلي بين الامم لذلك يجب ان تزول الأثرة وان يزول التعصب للجنس والتعصب للون ويجب ان يشعر العالم ان هناك وحدة روحية تربط اممه المختلفة »

هذا نموذج للذهن المبدع والعقلية الخالقة التي سلك بها اسعد باسيلي سبيل العمل المادي . وهو قد يكفي لنسوقه دليلاً على الكفاية الادبية التي كانت سابقة للكفاية التجارية التي جعلت منه ملكاً للخشب

أما فنه في الكتابة فمع انه يحتفظ فيه بشيء من الرشاقة الا انه اصبح مسبوقاً بطائفة من الكتاب المحدثين الذين ابتكرهم تطور العصر على ان رسائله ستبقى على الزمن لانها من صميم المثل الاعلى . فقد كان كاتباً منوعاً كثير الابواب جم الاحاطة بالغ التفوق . فقد كتب في أدق مسائل الاجتماع وأهم مسائل الحياة فله رسائل قيمة في مشاكل الزواج وبحوث ادبية شائقة نشرها تباعاً فى جريدة صدى الاهرام التي كان يصدرها تقلا باشا فى الاسكندرية والتي عهد بادارتها الى المرحوم فرح انطون وكان اسعد باشا يذيل هذه المقالات بتوقيع « سهيل » وكان لهذه المقالات دوي كبير فى مختلف الاوساط الادبية

وصفوة القول ان اسعد باسيلي الاديب كان صاحب رسالة الى الانسانية الحاضرة . وسواء نظرت اليه من ناحية كونه خلقياً رسم للاخلاق قواعد تهذيب جديد أو ككاتب اجتماعي استعار مسبار الجراح ومشرطه لكي يفتح بثور المجتمع الحديث ويكشف عن ادوائه فستتجلى لك فى الحالتين صورته الوقورة التي اوتيت حكمة القدم وحماسة المجددين فى اعلان الآراء المخالفة للمألوف .

هجرته الى مصر

بارح اسعد باسيلي مدينة طرابلس الشام في سنة ١٩٠٣ حيث كان الحكم المطلق الجائر يصد العبقريات عن مصاعدها، ولجأ الى وادي النيل لينضم الى رفيق صباه فرح انطون فقيد الوثبة الاولى نحو النور في تطور الفكر الحديث . وكان خير ما تتوق اليه نفسه وتطمح اليه ان يجد في اجواء مصر تلك الحرية التي كان ينشدها منذ صغره ليبث آراءه وينشر معارفه ومبادئه، ويناضل في سبيل هذه المبادىء نضال الواثق من نفسه الحريص على تفوقه . ويبدو مما كتبه في جريدة صدى الاهرام بعد وصوله الى الاسكندرية انه كان مغتبطاً بهذه الرحلة كما يطرب كل ناشىء الى رؤية الجديد من البلدان والجديد من الناس ولا سيما الاسكندرية التي سيجد فيها ميداناً لاظهار كفايته الادبية حيث يكتب ما يبدو له من الآراء بلا رقيب ولا حسيب

اما انه كان يطمح منذ صغره الى الحياه الحرة في بلاد تقدس حرية الفكر فظاهر من كتاب بعث به الى صديقه فرح انطون تعقيباً على ما نشره للفيلسوف رنان عن تاريخ السيد المسيح وقد نشر هذا الكتاب في العدد الصادر في دسمبر سنة ١٩٠١ من مجلة الجامعة وفيه يقول :

« لما رأيت عنوان كتاب رنان في الجزء الثاني من الجامعة قلت : سقياً لك يامصر ام الحرية التي صارت اقوال رنان تترجم فيك ... »

فمصر اذاً كانت معقد آماله وملتقى رجائه ، حتى اذا واتته الفرصة لحق بصديقه فرح في الاسكندرية . على انه لم يحضر لغرض التجارة ولعل ذهنه كان خالياً من فكرة مزاولة الاعمال التجارية ، وانما كان منصرفاً الى الاشتراك مع فرح في اصدار **صدى الاهرام** لحسابهما الخاص بعد ان أبدى تقلا باشا رغبته في التنازل عنها

وقد حدثني اسعد باشا ، رحمه الله ، عن هذا الموضوع فقال ان الاتفاق اوشك ان يتم بينه وبين فرح على اصدار **صدى الاهرام** ولكنهما ما لبثا ان اختلفا على تفصيلات المشروع فكان هذا الخلاف سبباً في انصراف اسعد باشا عن الصحافة الى ميدان التجارة بينما آثر فرح ان يظل في ميدان الكتابة والتأليف وان يسير فيه الى آخر الشوط

على ان اسعد باشا ما لبث ان درس حالة السوق التجارية ووجه اهتمامه بنوع خاص الى تجارة الاخشاب التي زاولها زمناً في طرابلس الشام مع شقيقه المرحوم انطونيوس فرأى بعين بصيرته الوقادة ان

مجال العمل امامه متسع وكانت حركة البناء في تلك السنة قائمة على قدم وساق وقد كثر الاقبال على اخشاب البناء فلاحت له الفرصة السانحة لاظهار مواهبه ونشاطه ومقدرته فعاد الى طرابلس وشرح الحالة لشقيقه وما زال به حتى اقنعه بانشاء فرع لمتجرهما في طرابلس برأس مال قدره ثمانية آلاف من الجنيهات وفي سنة ١٩٠٤ كان قد تم انشاء هذا الفرع وكان ذلك بداية مجده المادي

في عالم التجـارة

أقبل اسعد باسيلي على تجارة الخشب في الاسكندرية والسوق التجارية ممتلئة بجبابرة التجار ودهاتهم، فكان عليه ان يشق لنفسه طريقاً بينهم، ولا ريب في ان عملاً كهذا يستلزم ارادة صلبة قوية، وخبرة واسعة وذكاء شديداً ولكنه لم ينقصه النشاط الذي يكافح به القوة التي يطالعه بها هؤلاء الجبابرة والدهاة، وعرف كيف يقاوم العوامل العديدة التي تعمل على محاربة التاجر الناشىء وهزيمته، وقف وحده لا يبالي بضروب الكفاح والعداء التي حشدتها البيوتات التجارية لمقاومته واستطاع ان يهزم خصومه باسلحة أشد من اسلحتهم تساعده في ذلك ارادة صلبة قوية، وخبرة واسعة وذكاء متوقد، فأحرز في الزمن القصير مركزاً وثقة واتساعاً في الاعمال لا يتوفر لغيره في الزمن الطويل، وظل يشق طريقه بين الصفوف حتى سيطر على سوق الخشب

وتراجعت الى الوراء جميع البيوتات التجارية التي كانت تدعي احتكاره . واستولى نهائياً على هذه التجارة كما يستولي القائد المحنك على الميدان الواسع قطعة قطعة . وكان في ذلك موفقاً دائم النجاح فأصبح صاحب الكلمة العليا في سوق الخشب وربما قامت وارداته منه مقام الضعف من واردات سائر التجار . وحسبنا ان نعترف باننا لا نستطيع الاشارة اليه دون ان نلقبه بملك الخشب . ونستطيع ان نقول ان البيئة تحدد المطامع فلو ان اسعد باسيلي كان في اميركا لأحرز بحق مثل هذا اللقب وكانت دوائره ومكاتبه تضيق عنها ناطحات السحاب كسائر بيوت التجارة الاميركية التي تتحدث عنها الصحف الى الجماهير في العالم فيصيب الانسان لشدة ما يعتريه من الدهشة لغرابتها ذهول كالذي يستولي على بعض من تفاجئهم الانباء الخارقة

وبعد فقد تمتد الطريق وتطول امام الذين يبتغون الوصول الى الغاية ولكن الذين لا يكلون ولا يقفون يخلفون من ورائهم خطاً مستقيماً هو سبيل النجاح في الحياة ، وهو الخط نفسه الذي يخلفه البطل بين الصفوف دليل جهاده المقرون بالفوز ، وهو الخط الذي يتركه في التربة محراث المزارع مبشراً بالانتاج

قلنا ان الطريق تمتد وتطول امام الذين يبتغون الوصول الى الغاية ونضيف الى ذلك ان رأس النجاح الاقدام وفي امثال الاميركيين المعاصرين ان فرضاً على المرء ان يخاطر وان عاقبة هذه المخاطرة محمودة

لانها تعلم الجرأة والتاجر الجريء موفور النجاح لان لا جرأة بلا بصيرة

واسعد باسيلي قد شق طريقه الى المجد باقدامه وشجاعته، وهو قدوة صالحة لمن يبغي ان يسلك سبيل التجارة والاقتصاد . وقد كان في حياته التجارية مثال الاستقامة والشرف ، والاستقامة والشرف هما العنصران اللذان لا تنهض التجارة الا بهما ، ولعل في مقدمة العوامل التي ساعدته على نجاحه الدقة والنظام والادارة الحسنة واقترن كل هذا بذكاء فطري ومقدرة على تصريف الامور ويقظة دائمة ومراقبة مستمرة لحالة السوق والتطورات العالمية

كان — رحمه الله — لا يترك شاردة ولا واردة من شؤون محله إلا ألمّ بها ووقف عليها ، وكان يطلع على كل كبيرة وصغيرة ويناقش كل مسألة ولا يتمسك برأي يتبين له خطأه بل يبادر الى الاخذ بالرأي الاصوب لا يبطيء ولا يتردد

وقد اتسعت معاملات باسيلي باشا التجارية ايما اتساع وكان يستورد الاخشاب من مصادرها المتعددة ، وبلغت وارداته منها ضعف واردات سائر التجار ، وصار لمحله التجاري مقام ممتاز في جميع البلاد المصدرة أي في رومانيا وتركيا وروسيا وفنلندا والسويد واميركا ، وطارت شهرته وذاع صيته ، وكان ، رحمه الله ، يرعى مصالحه رعاية كبيرة ، فمن عادته ان يسافر وعائلته كل سنة الى اوروبا لقضاء اشهر الصيف فيها فكان ينتهز الفرصة للطواف ببعض البلدان التي تصدر الاخشاب

ويعقد الصفقات الكبيرة بنفسه ، وكان وهو في اوروبا دائم الاتصال بمحله لا يني يصدر التعليمات ويرسم الخطط

لقيته ذات يوم في اوائل سنة ١٩٣٧ وكان عائداً من رحلة طويلة في رومانيا وتركيا في صميم الشتاء ، وكان يشكو ألماً في ظهره لكثرة ما تعرض للبرد في اسفاره فقلت مخاطباً اياه :

— ألا هوّن عليك يا باشا وترفق بصحتك الغالية فانت في هذه السن في حاجة الى الراحة والاخلاد الى السكون

قال في شيء من الجد وبلهجة حازمة : — الدنيا ميدان والحياة معركة ولا لذة للعيش اذا أخلد المرء الى الراحة والسكون . وخير له ان يعارك في ميدان الحياة ويناضل في مضمارها ... هذه هي الحياة . هذه هي الحقيقة

قلت : — وصحتك يا باشا

اجاب : — سأعنى بها ، ولكن واجبي كتاجر يحرص على مصالحه ومصالح عملائه يجعلني ألا ابالي بالمصاعب مهما بلغت ، اني رجل كفاح ونضال منذ صغري ولن تغير الايام والسنون من طبيعتي

وهنا تذكرت قول الشاعر العربي :

واذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسام

ولما اضطربت السوق التجارية بعد اعلان الحرب في سبتمبر سنة ١٩٣٩ وعمدت الحكومة الى وضع تسعيرة جبرية للاصناف الاولية ،

رأت ان تستعين بخبرة اسعد باشا فعينته عضواً في لجنة تسعير الاخشاب ، وكان لرأيه المقام الاول ولا نبالغ اذا قلنا ان السوق نظمت تنظيماً دقيقاً على هدى ارشاداته ونصائحه ، وكان رحمه الله يصدر في كل ذلك عن رغبة صادقة في خدمة المصلحة العامة وتقديمها على كل مصلحة سواها . كذلك اختارته الحكومة عضواً في المجلس التجاري الأعلى تقديراً لمواهبه واعترافاً بمقدرته التجارية العالية

في الغرفة التجارية المصرية

كانت الغرفة التجارية المصرية في سنة ١٩٢٦ في بداية تأليفها تتعثر في سيرها ، وكان مقرها في دور ارضي باحدى العمارات الجديدة بالميناء الشرقي لا مورد لها تستعين به على النهوض نهضة جديرة بالاسكندرية مهد البورصة والاعمال التجارية . وقد عز على بعض النابهين ان تظل الغرفة في جمودها وعابوا على القائمين على تدبيرها اغفالهم ضم الفئة المستنيرة والصفوة المختارة من اكابر التجار الوطنيين الى مجلس ادارتها ، وكانت قد انتهت اليّ في ذلك الحين معلومات عن حالة الغرفة فاخذت في نشرها تباعاً في جريدة البلاغ التي اسهم في تحريرها وقد أثار نشر هذه المعلومات ضجة كبرى في الوسط التجاري. وفي ذات يوم قابلني صديقي الاستاذ علي شكري خميس السكرتير العام للغرفة وانشأ يعتب عليّ للحملة التي اثرتها في البلاغ فقلت له ان الناس يقولون

كيت وكيت وانه من مصلحة الغرفة نفسها ان يبادر الى تدعيمها وتقويتها بادخال عناصر جديدة قوية فيها ، فأخذ يشكو افتقار المدينة الى تجار أكفاء يمكن الاعتماد عليهم في انهاض الغرفة من رقدتها وايقاظها من غفوتها وقال ان المساعي مبذولة لاقناع سعادة امين يحيي باشا بالانضمام اليها فهل لك ان تدلني على تاجر ممتاز ومالي كبير من طراز امين باشا حتى نستعين به على اصلاح الحال ؟ قلت ان الوجيه اسعد باسيلي شخصية تجارية ممتازة وهو الى هذا رجل علم وأدب ، واسع الاطلاع ، ذو غيرة وطنية وقادة فما اظنه يرفض الانضمام الى الغرفة . قال : اني في هـذا معك فلنجرب

وفي صباح اليوم التـالي قصدنا معاً الى دار المرحوم اسعد باشا فقابلنا رحمة الله عليه مقابلة غاية في الرقة واللطف وأخذ يتبسط في الحديث مع الاستاذ علي شكري خميس حتى بهره بوفرة معلوماته وواسع اطلاعه على كل كبيرة وصغيرة من دقائق الحالة التجارية والاقتصادية في البلاد . فلما عرض عليه فكرة الانضمام الى الغرفة اعتذر في بداية الامر بوفرة مشاغله ولـكنه ما لبث ان ارتاح للفكرة مدفوعاً الى ذلك بدافع الوطنية وايثار المصلحة العامة وتقديسها قبل تقديس أي غرض آخر ، وكان ذلك بداية دخوله عضواً في مجلس ادارة الغرفة وانتخابه بالاجماع وكيلاً لها

وبدأ اسعد باشا عمله في الغرفة بارشاد زملائه الاعضاء الى وسائل

النهوض بها وترقيتها ، فكانوا يعملون بارشاده ويسيرون على هدى آرائه القيمة ، ويشيدون بفضله وسعة اطلاعه ، ولاحظ رحمه الله قلة موارد الغرفة المالية فكان كلما اعوزتها الحاجة للبذل كان في طليعة المتبرعين لها بمبالغ كبيرة . وقد عرضت عليه الرياسة بعد ذلك فرفضها قانعاً بالوكالة لاعتبارات لا يجهلها القائمون على تدبير الغرفة . وانضم الى الساعين باقناع امين يحيي باشا بتولي الرياسة وما زال يواصل السعي حتى كلل بالنجاح ، وتعاون مع صديقه امين باشا على النهوض بالغرفة وانماء مواردها وانشاء دار انيقة لتكون مقراً لها وتوسيع المعرض الدائم للمصنوعات المصرية ليكون دعاية طيبة لصناعة البلاد ورمزاً حياً على تقدمها في ميدان التجارة والانتاج الصناعي

وكان لأسعد باشا فضل كبير في تعزيز فكرة اصدار مجلة الغرفة لتكون ميداناً لنشر المبادىء التجارية والاقتصادية الصحيحة وقد اختير لرياسة اللجنة العلمية التي تتولى الاشراف على المجلة ولم تخل هذه المجلة من ابحاثه الطريفة. كذلك كان له نصيب وافر في كثير من الاقتراحات التي اريد بها تمتين العلاقات التجارية بين مصر وسوريا ولبنان ، وكان من اشد القائلين بضرورة ايفاد بعثة تجارية الى تلك البلاد لغرض التعاون التجاري والتضامن الاقتصادي . وهكذا كانت الغرفة تستمد منه انضج آرائها

ونحن اذا حاولنا الاشادة بفضله على الغرفة والتحدث عن آثاره

فيها ضاق بنا المقام عن سردها وعن الاشارة الى المقترحات العديدة والابحاث القيمة التي عالج بها مشكلات مستعصية عرضت على بساط البحث امام مجلس ادارة الغرفة في كثير من المناسبات ، على اننا نكتفي بهذا القدر ونقف عند هذا الحد

وصفوة القول ان اسعد باشا كان في الغرفة حركة دائمة وكان ، كما وصفه الاستاذ علي شكري خميس في كلمة التأبين التي القاها باسم الغرفة على ضريحه ، قدوة تقتدى ومثالاً يحتذى لرجال المال والاعمال بذكائه المتقد وهمته العالية وثباته العجيب ووطنيته العالية المقرونة بالاتزان وسلامة القصد

في المجلس الطائفي للروم الأرثوذكس المصريين

مضى أمد غير قصير وطائفة الروم الارثوذكس الوطنيين تتخبط في ديجور من الظلمة الحالكة ، وتنتقل من سوء الى سوء ، فقد كانت خاضعة لنفوذ اليونانيين مندمجة في اغلبيتهم الساحقة ، ليس لها كيان خاص كسائر الطوائف الحرة الشاعرة بذاتيتها والمحسة حيويتها ، فاذا شكا المصلحون من هذه الحالة ، وألحوا في الشكوى اظهر القائمون على تدبير الطائفة شيئاً من النشاط وأكثروا من الكلام ، وخيل الى الطائفة انهم قد نهضوا ليؤدوا واجبهم بما اظهروه من نشاط ، وما اكثروا من كلام ، فاذا استمرت الفوضى في الحاحها حتى أهلكت او كادت تهلك كل شيء ، واذا مضى المصلحون في شكاتهم نهض المتزعمون واصحاب النفوذ فقالوا ان اثم الفوضى على الطائفة لانها لا تتفق على رأي ، والواقع ان هؤلاء الزعماء لم يكونوا يستطيعون ان يصنعوا شيئاً مغنياً ،

ولكن الطائفة لم تتخذ هذه الهيآت الطائفية اداة من ادوات الترف ولوناً من ألوان الزينة

وفي سنة ١٩٢٤ كانت الفوضى الطائفية قد صارت الى حال لا يمكن السكوت عليه فقام المستنيرون من ابنائها يطالبون بتأليف مجلس طائفي يتولى النظر والفصل في شؤون الطائفة حتى يتم بذلك انفصالها ادارياً عن السيطرة اليونانية ويصبح لها كيان خاص ، وتعيين وطنيين في مجلس ادارة املاك البطريركية واوقافها واشراكهم في اعداد قانون انتخاب البطريرك ورسامة مطران او اكثر من ابناء اللغة العربية. وكان المرحوم اسعد باسيلي باشا في طليعة رجال الطائفة الذين أيدوا هذه الحركة وساعدوا على تأليف لجنة تحضيرية تتولى مفاوضة الحكومة والبطريركية لتسوية وجوه الخلاف تسوية عادلة . وفي ربيع سنة ١٩٢٥ كان هذا الخلاف قد بلغ أشده وكان دولة زيور باشا يتولى رئاسة الوزارة المصرية . وكانت لباسيلي باشا علاقة مودة وثيقة بدولته فقابله وشرح له موضوع الخلاف وما زال به حتى حمله على تأييد مطالب الوطنيين وظهر هذا التأييد جلياً عند اختيار البطريرك ملاتيوس متاكساكس بطريركاً خلفاً للمرحوم البطريرك فوتيوس فقد أبت الحكومة المصرية الاعتراف بالبطريرك الجديد الا اذا قبل مطالب الوطنيين وعمل على تنفيذها . وقد نفذ طائفة منها وكان في مقدمة ما نفذه تعيين مطران وطني هو المطران نيقولاوس عبدالله

وفي سنة ١٩٣٣ عني باسيلي باشا بتأليف مجلس تمثيلي فتم له ما اراد واختير سعادته رئيساً له وفي سنة ١٩٣٥ توفي البطريرك ملاتيوس فقرر الوطنيون مقاطعة الانتخاب احتجاجاً على القانون الذي جعل اغلبية الناخبين من اليونانيين في حين ان الخطوط الهمايونية تقضي بأن يكون حق الانتخاب مقصوراً على ابناء الطائفة من رعايا الدولة العثمانية دون سواهم وقد وضع اسعد باشا مذكرة مستفيضة دافع بها عن مصالح الوطنيين وحقوقهم وسافر الى القاهرة وقدمها الى دولة رئيس الوزراء فكان من نتيجة ذلك ان محافظة الاسكندرية تلقت كتاباً بتاريخ اول دسمبر سنة ١٩٣٥ من دولة توفيق نسيم باشا يطلب فيه لفت نظر سيادة النائب البطريركي الى ما تتجه اليه نية الحكومة من إدخال مواد جديدة على قانون الانتخاب يراد بها تعيين مطران ثان للارثوذكس الوطنيين وان يكون لهم حق الاشتراك في مراقبة اوقاف الكنيسة الارثوذكسية في هذا القطر

وفي الساعة السابعة من مساء يوم الثلاثاء ٤ فبراير سنة ١٩٣٦ اجتمع المجلس التمثيلي برياسة باسيلي باشا لسماع تقرير اللجنة التي انتدبت للمفاوضة مع لجنة الاساقفة في مسألة حقوق الوطنيين من البطريركية وفي انتخاب البطريرك الجديد وقد تقرر في هذا الاجتماع مقاومة الخطة البطريركية بواسطة الحكومة لانها ملجأهم الوحيد ولان الحكومة صاحبة الحق الذي يحاول ممثلو البطريركية إنكاره وعدم الاعتراف به وكانت الحكومة

قد اشترطت شروطاً معينة للاعتراف بالبطريرك الجديد وممثلو البطريركية يحاولون اغفال شروطها والاستقلال في تصرفهم كأنما هم اصحاب السيطرة وكأن الحكومة لا شأن لها في الامر كله

وفي ٦ فبراير سنة ١٩٣٦ قدم المجلس الى سيادة القائمقام البطريركي احتجاج الطائفة على الخطة التي اتبعتها البطريركية في مسألة الانتخاب وتجاهل مطالب الوطنيين فوعد القائمقام البطريركي بدرسه بعد نقله الى اللغة اليونانية . وفي صباح ٩ فبراير قصد سعادة باسيلي باشا الى القاهرة وقابل معالي وزير الحقانية وقدم اليه احتجاج الوطنيين على تصرف البطريركية . اما الجالية اليونانية فقد اخذت في الاستعداد للانتخابات وفاقاً للقانون الذي وضعه البطريرك . وفي ١٠ فبراير ارسلت وزارة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا كتاباً الى البطريركية تطلب فيه مراعاة الشروط التي اشترطت عليها في عهد وزارة نسيم باشا فيما يختص بانتخاب البطريرك الجديد وصيانة حقوق رعايا الحكومة المصرية من ابناء الكنيسة الارثوذكسية ومن بينها تعيين مطران ثانٍ للوطنيين وكان ارسال هذا الكتاب على اثر مقابلة رفعته لباسيلي باشا وتقديم الاحتجاج . وفي يوم الثلاثاء ١١ فبراير تم الانتخاب وارسل المجمع كتاباً الى المحافظ يبلغه النتيجة معلناً وقوع الاختيار على البطريرك نيقولاوس ويطلب عرض هذه النتيجة على الداخلية لاستصدار البراءة الرسمية للبطريرك الجديد

وفي عهد وزارة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا جدد باسيلي باشا مساعيه اذ قابل رفعة النحاس باشا وشرح له وجوه الخلاف فعني رفعته به وبادر الى تسويته وفاقاً للقواعد الموضوعة ووعد البطريرك بتنفيذ ما تم الاتفاق عليه من وجوب ترشيح مطران وطني آخر في اول ترشيح للاسقفيات الشاغرة والتابعة للبطريركية على ان يكون لكرسي الاسكندرية او لكرسي القاهرة نصيب في احد المطرانين الوطنيين ليتولى خدمة ابناء الطائفة المصريين

وبعد ان انتهى باسيلي باشا من تسوية الخلاف بين البطريركية والطائفة عني بتنظيم شؤون الطائفة تنظيماً يكفل لها النهوض والترقي. وكان سعادته قد اختير رئيساً للجمعية الخيرية خلفاً للوجيه ادوار كرم ولكنه رأى ان يوحد الهيئات الطائفية تحت إشراف مجلس طائفي فدعا الطائفة في ابريل سنة ١٩٣٧ الى انتخاب المجلس وحرص رحمه الله على ان تمثل الطائفة ادق تمثيل في هذا الانتخاب باشراك جميع ابناء الطائفة فيه وفاقاً للقانون الذي عني بوضعه عناية كبيرة. وبعد ان تم تأليف المجلس اجتمع اعضاؤه وقرروا بالاجماع إسناد الرئاسة الى سعادته وبذلك اصبح رئيس الطائفة. وقد تبرع سعادته لهذه المناسبة للمجلس بمبلغ الف جنيه مصري

وكان اول ما عني به بعد ذلك وضع قوانين جديدة للجمعيات والمعاهد الطائفية تتفق والنظام الجديد. وانشاء مكتب للمجلس لضبط

اعماله وحساباته وانماء اموال الجمعيات الطائفية ورعاية مصالحها والعناية بمنشآتها حتى شعر كل فرد في الطائفة ان عهد الفوضى قد انقضى وان الطائفة تستقبل حياة جديدة في ظل النظام الجديد

وحادثة اخرى اذكرها لسعادته وقد تجلت فيها غيرته على الطائفة وحرصه على مصالحها ، ذلك ان البطريرك خريستوفوروس رغب عقب انتخابه نقل المطران نيقولاوس عبد الله الى الخرطوم فثارت ثائرة باسيلي باشا لهذا القرار وعده تحدياً للطائفة الوطنية لان الاتفاق الذي سوّي الخلاف بمقتضاه يقضي بان يكون لكرسي الاسكندرية او لكرسي القاهرة نصيب في المطران الوطني ليتولى خدمة ابناء الطائفة المصريين . وسرعان ما وضع مذكرة وسافر الى القاهرة وقابل رفعة علي ماهر باشا رئيس الوزراء وقدمها اليه فاستدعى رفعته البطريرك وطلب اليه ان يعدل عن قراره ويسمح لسيادة مطران اكسوم بالبقاء والعمل في الجهة الرئيسية لمباشرة شؤون ابناء الكنيسة الروحيين من الوطنيين المقيمين في القاهرة والاسكندرية

وكان ، رضوان الله عليه ، قد رغب في اواخر ايام حياته في انشاء كنيسة للطائفة على نفقته في ضاحية الرمل فادركته المنية قبل ان يحقق هذه الامنية بيد اننا علمنا ان حضرة السيدة الجليلة ارملته ستعنى بانشاء هذه الكنيسة تحقيقاً لرغبة زوجها العظيم

عطفه على الأدب

كان اسعد باشا رغم مشاغله التجارية الكبيرة يعطف على الفكر والادب . وكان من عادته ان يأوي بعد الغداء الى مكتبته الانيقة ليعيش فيها بين كتب الادب والاجتماع ويترك اليه اذهان جيل او يزيد تحوطه وتشارفه . فلا يحرم من الجو الذي لا يموت فيه الذهن ولا تصدأ فيه القريحة . وفي هذا ولا ريب عزاء الادباء بعد اعتزاله ايامهم وبعض التخفيف من ألم المهذبين يوم اختارته العناية للمركز التجاري الخطير

ومن الحق ان نقول ان العمل التجاري لم يمنع هذا الرجل المفكر من ان يطل على الناس الحين بعد الحين ولم يحل بينه وبين عرض الصور التي تلوح في ذهنه على الجمهور واخراج ثمرات قريحته كلما رأى الفرصة سانحة والزمن مؤاتياً . فقد قرأنا له منذ بضع سنوات — ولعل ذلك

في صيف سنة ١٩٣٣ — بحوثاً طريفة في الازمة الاقتصادية بعث بها الى جريدة المقطم من اوروبا وهكذا اقام الدليل على انه لم ينسَ الناس ولم ينصرف عن الجمهور شأن كثيرين من اهل الفكر بلغوا الذروة في التجارة او قعدوا مقاعد الحكومات وتولوا الوزارات والرياسات. فقد كان لورد بيكونسفيلد على رأس الوزارة الانجليزية فلم يمنعه منصبه على خطورته ان يضع ذهنه في كل مكتبة ويعيش في خزانة كل قارىء فبينا ينشىء المحالفات، ويوقع على المعاهدات، ويرأس البرلمانات اذ هو طارح عنه كل ذلك، عائد الى حجرته ليغيب في تفكيره، ويأخذ في وضع رواياته. ثم لا ننسى ان جوت كان وزيراً ورئيس بلاط دوق ويمر فما كان ذلك ليقتل فيه الروح المضطرمة في جانحته، والنزعة الفكرية التي تتقد في فؤاده

ثم لا ننسى كذلك ادباء العرب الذين عاشوا في قصور الخلفاء، وولوا الولايات، وعهدت اليهم المقاطعات، فابوا الا ان يظلوا مع ذلك ادباء وكتاباً اكثر منهم ولاة وحكوميين

ومن الانصاف ان نذكر انه قلما ظهر مؤلف جديد لكاتب كبير الا كان اسعد باشا اسبق الناس الى اقتنائه والاشادة بفضل مؤلفه، وقد أعان طائفة من المؤلفين على إخراج مؤلفاتهم. فطبع على نفقته كتاباً في الفلسفة القديمة للاستاذ حنا خباز وكتاباً آخر عنوانه «هكذا تكلم زرداشت» للفيلسوف الالماني الاشهر فريدريك نيتشه

عربه الكاتب الكبير المرحوم فليكس فارس وهو الكتاب الذي صدم به نيتشه تيارات الفلسفات المتناقضة منذ نصف قرن في اوروبا موجهاً الانسان الى تلمس عواطف القوة في نفسه لانشاء الجبابرة في المجتمع .
وقد اورد الاستاذ فيلكس فارس في مقدمة الكتاب الاسباب التي حفزته الى تقديمه للمرحوم باسيلي باشا فقال :

« لقد فرض عليَّ قلمي اسمك فرضاً لاقدم كتابي اليك لا لابرر عملي تجاه تواضعك بل لابرىء نفسي من اختيار تعسفي قد يحمل على محمل التزلف وما انا من يتدنى اليه ولا انت من يؤخذ به . لقد بدأت حياتك بالاشراف على تعليم الناشئة في مسقط رأسك ثم بارحت مطارح ظلال الارز ولجأت الى وادي الملوك انت ورفيقك المرحوم فرح انطون وما تحولت عن هذا الرفيق الى مراكض جهودك حتى تركت في جامعته طابع نفسك الحرة وتفكيرك العميق وانك لتذكر ولا ريب تقريركما ترجمة « زرداشت » الى العربية والصفحات المعدودة التي اعار فيها فرح بيانه الجزل للفيلسوف الالماني تسايره في اجوائه واغواره فأنت وفرح رأيتما قبل كل احد في فلسفة نيتشه ما تحتاج اليه النفوس المتواكلة من حزم وانطلاق كما ادركتما ان الحاد هذا الفيلسوف لن يؤثر في ايمان الشرق لانه لا يستند إلا الى شكوك نشأت عن حالة خاصة بالغرب وان القوة وحدها التي نحتاج اليها في نهضتنا ستنسرب من كتابه الخالد الى بياننا في كتاب تفتقر المكتبة

العربية اليه بعد ان ترجم الى لغات الدنيا وطالعه المفكرون من كل الشعوب .

« لقد اردتُ بهذا البيان ان أبرر تقديم ترجمتي لزرداشت اليك في نظر القراء لا في نظرك لانك تعلم ان هذا الكتاب انما هو تحقيق حلم رأيته انت ورفيقك القديم وتنفيذ لرغبة لم تزل مكبوتة في خفايا سريرتك واني لأرى في المرحلة التي قطعتها منذ ذلك العهد ما يزيدك رغبة في نشر زرداشت في بلادك بعد ان تيقنت باختبارك واثبتّ بحياتك نفسها وهي مجلى الثقة بالنفس والايمان بالخير ان الجبار الذي حلم به نيتشه عاملاً لدنياه كأنه لا يموت ابداً انما يستكمله الجبار الآخر الذي يعمل لآخرته كأنه يموت غداً » .

٥٥٥

وفي اوائل صيف سنة ١٩٣٣ انتهت الى المرحوم باسيلي باشا انباء الاعمال الجليلة التي تقوم بها جماعة نشر الثقافة التي ألفت في سنة ١٩٣٢ برياسة الكاتب الشاعر الاشهر الاستاذ خليل شيبوب والتي ضمت اليها نفراً من افاضل المحامين وكبار الموظفين الذين لهم مشاركة في كثير من العلوم والآداب فاخذ يثني على القائمين بتدبيرها ثناء عاطراً فانهيت ذلك الى الاستاذ شيبوب فقال وهل ترى يشرفنا بزيارته ؟ انه ان فعل ذلك كان عمله دعاية طيبة لاعمالنا . وقد فاتحتُ الباشا بالامر فما تردد في تحقيق هذه الرغبة ، وقد قصدتُ معه عصر احد الايام الى النادي الذي

اتخذته الجماعة مقراً لها فكان في استقباله رئيسها الاستاذ شيبوب واعضاء مجلس ادارتها وقد حيوه احسن تحية واخذ ، رحمه الله ، يتبسط معهم في احاديث الادب والادباء حتى بهرهم بوفرة معلوماته وجميل ذكرياته . وتفقد بعد ذلك المكتبة واطلع على بعض الكتب التي تولت الجماعة طبعها على نفقتها فاخذ يطري اعمالها ويشجع القائمين على تدبيرها بكلمات رقيقة .

ودعي بعد ذلك الى تناول الشاي في قاعة الاجتماعات فتصدر المائدة الرئيسية وجلس حوله الرئيس والاعضاء وكلهم مغتبطون بهذه الزيارة الكريمة وقد أجلوا فيه كفايته الادبية التي سبقت كفايته التجارية . وبعد تناول الشاي والحلوى وقف الاستاذ شيبوب والقى قصيدة عامرة الابيات نوه فيها بكفاية الباشا وباعمال جماعة نشر الثقافة على سبيل التعريف ننشرها فيما يلي لانها لم تنشر في الصحف في المناسبة التي القيت فيها :

يا اسعد الخير كم حققت من عجب	في حسن جمعك بين المال والادبِ
أَلّفتَ بينهما في همة بنيت	على الامانة والاخلاص والدأبِ
تعير كلاً من التفكير جانبه	متمماً ما بدا في ألفة عجبِ
اليهما انت في العلياء منتسب	تلفيهما خير امٍّ في الورى وابِ
فنلتَ ما نلتَ عن جدٍّ ومعرفة	لا عن تصرف اقدار وعن لعبِ

٥٥٥

هذي الجماعة قد قامت وغايتها ... نشر الثقافة للرواد عن كثبِ
عزائم في نفوس حرة نهضت ... من كل مضطرم الاخلاص ملتهبِ
يكشف الليل عن نور اليقين لمن ... أضله الليل في المستاحم الأشبِ
أجاب داعي وفاء للبلاد دعا ... وخائن من اذا تدعوه لم يجبِ
فهبَّ ينشر ما يهريق من دمه ... نوراً يسيل من الاقلام في الكتبِ
يود لو انه أسدى البلاد يداً ... يرضي بها مجدها المصري والعربي

ooo

هذي الجماعة اذ أنبئت غايتها ... تعلي مقام العصاميين في الرتبِ
من كان مثلك إما نال من أرب ... له يجدد مسعاه الى اربِ
معضداً كل ما تزهو البلاد به ... من المرافق من ناء ومغتربِ
فاقبل تحيتنا عطرية طربت ... بها القوافي فهبت حلوة الطربِ

ooo

ونهض بعده الاستاذ عبد اللطيف النشار والقى قصيدة من جيد الشعر موضوعها « الخشب » تضمنت من لطف التورية وجميل الاشارة ما أثار الاستحسان . وقفاه الشاعر الاديب عثمان حلمي بقصيدة رقيقة من شعره الرضين .

ووالله ما رأيت المرحوم اسعد باشا حيياً مثلما رأيته في تلك الساعة فقد اخجل الشعراء تواضعه بما وجهوه اليه من اطراء هو في الواقع اقل مما يستحقه . فوقف ، رحمه الله ، وارتجل كلمة شكر طيبة

القاها باسلوب وئيد وبعبارات متزنة رصينة اثارت اعجاب الحاضرين وقابلوها بعاصفة من التصفيق .

ولما انتهت الحفلة ودعه الرئيس والاعضاء بمثل ما استقبلوه به من مظاهر الحفاوة والتكريم . وفي اليوم التالي نفح الجماعة بمبلغ كبير من المال معاونة منه للاعمال الادبية التي تقوم بها في دائرة الثقافة والتهذيب فقوبلت مبرته بالشكر الوفير .

وفي ربيع سنة ١٩٣٩ تبرع اسعد باشا بمبلغ مائة جنيه مصري لمجلة المقتطف لتوزعها جوائز ادبية على الذين يفوزون في مباراة تقترح موضوعها احتفاء بذكرى صديقه الدكتور صروف وقد اجتمعت لجنة التحكيم في يناير سنة ١٩٤٠ واصدرت قرارها ورغبت فيه الى الواهب ان يبقي هذا المبلغ من المال رهن عمل ادبي آخر رأت اللجنة ان يكون على غير اساس المباراة بان يعهد الى كتاب مختصين بكتابة فصول في موضوعات مختلفة وان يوزع عليهم هذا المبلغ مكافأة لهم ثم تقوم ادارة المقتطف بطبع هذه الفصول في كتاب تهديه الى مشتركيها باسم الواهب لذكرى الدكتور يعقوب صروف . ولما انتهى اليه الامر اظهر اغتباطه بالنزول على قرار اللجنة فاصدرت ادارة المقتطف هذه الفصول بارشاد اعضاء اللجنة ووزعت مجموعتها هدية على حضرات المشتركين .

وطنيّة

اذا ذكرت الوطنية العاقلة الرشيدة ، الوطنية الملتهبة الصامتة التي تزن الامور وتقدر العواقب وتعلم ما يجب وتدع ما لا يجب ، كان المرحوم باسيلي باشا في طليعة الوطنيين ، فقد كان يؤدي واجباته الوطنية هادئاً دون ان يصيبه ما يصبو اليه الناس من حب المظاهر ، وكان من اكثر الناس حباً لمصر والمصريين ، يرجو لهم الفلاح والتقدم ويسره ان تنال مصر مبتغاها وان تتحقق امانيها .

وكان ، رحمه الله ، لا ينفك يطبع مظاهر معيشته بطابع الوطنية فقد كان يبدو على عيشته في بيته انها غربية المظهر ، ولكنها في صميمها عيشة شرقية المظهر بكل ما فيها من محافظة على التقاليد . وكان كذلك حريصاً على تعليم ابنائه اللغة العربية تعليماً صحيحاً فاختار لذلك اساتذة مخصوصين حتى لقد كان تمسكه باللغة العربية وشغفه بها يبلغ به الى حد

التعصب لها وآية ذلك ان جميع اعمال محله وحساباته ومراسلاته باللغة العربية حتى ليحرص الحرص كله على ان تكون بلغة عربية صحيحة . وكثيراً ما كان يغير من اساليب الرسائل التي تعرض عليه للتوقيع ويبدل في الفاظها ويهذبها حتى تستكمل كل اسباب المتانة والقوة ، ويندر ان يحرص تاجر وطني حرص باسيلي باشا على اسلوب اللغة التي تكتب بها رسائله وتدون حسابات اعماله الواسعة وهذا لعمري مظهر من مظاهر وطنيته والاعتزاز بقوميته .

ونذكر ان احد محرري جريدة « **البصير** » قصد اليه في اوائل سنة ١٩٢٦ وحادثه في مصير النظام السياسي في سوريا ولبنان وكانت الحالة السياسية في تلك البلاد ملفوفة في كثير من الغموض والابهام فلم يتردد في ان يصارحه بان الاستقلال حق من حقوق الشعوب وان الحرية جزء لا يتجزأ وانه لحق واجب ان يختار الفرنسيون في سياستهم الاستعمارية النوع الانساني من الحكم وهو الذي يقوم على التضامن ولن يستطيعوا ان ينجحوا في سوريا او في غيرها الا اذا اعتبروا الحرية حقاً انسانياً مقدساً .

وقال رداً على سؤال المحرر :

« ان الذي يسعى بين الناس صائحاً صارخاً انني سأحكمكم يجب ان يحقق كلمته بالشدة والقوة والعسف اما الذي يسير سائلاً الناس من منكم يريد ان يضع يده في يدي لتحقيق فكرة عامة سامية

سيجمع اليه ولا ريب عصبة كبيرة من الاعوان الطائعين والحلفاء والانصار » .

وختم حديثه مع المحرر مشيراً الى ضرورة التعاون بين سوريا وفرنسا تعاوناً ينهض على اساس التفاهم الصادق .

ومن آيات وطنيته تلك الحفلة الحافلة التي اقامها في داره في اوائل صيف سنة ١٩٣٧ لتكريم صاحب الغبطة البطريرك انطون عريضه بطريرك الطائفة المارونية بلبنان بمناسبة سفره الى باريس ليفاوض السلطات الفرنسية حول نظام الحكم في لبنان . وقد قصد بتكريم البطريرك عريضة الاشادة بجهوده الوطنية ومواقفه الجليلة في صد التيارات المختلفة التي اريد بها التحكم في مصائر اللبنانيين وحكمهم بقوة النار والحديد .

وحقاً ما أحسبني شعرتُ من سنين بمثل ما شعرتُ به في هذه الحفلة من خشوع ، وما رأيت مثلما رأيت جماعة من اكابر مصر علماً ومقاماً يستمعون الى الخطب الوطنية الفياضة التي القيت في تلك الحفلة الفريدة التي كانت مظاهرة صارخة لانماء فكرة التضامن بين مصر وسوريا ولبنان بتكريم الزعيم اللبناني صاحب المواقف الوطنية المشهورة .

كلاً . كلاً . لم تكن حفلة تكريم ما شهدنا في دار باسيلي باشا . ولم تكن تلك الصالة الكبرى هي الصالة التي شهدت ما شهدت من الولائم

وتعطرت باريج المراقص وموسيقى الانغام والاجسام . ولم يكن شاياً ولا حلوى ما تناول المحتفلون والمحتفل به ، بل كانت هذه الصالة معبداً روحياً يتخشع هيبة وجلالاً لما يلقى فيه من دعوات وكان المحتفل به روحاً يترنم بالحان الحياة الخالدة . وكان المحتفلون وكل قلوبهم أوتار يملي عليها هذا الروح من المعاني المقدسة ما تهتز له اهتزازاً . وكانت الحلوى وكان الشاي غذاء القلوب والافئدة التي سمت ساعة من زمان في أسمى عوالم الانسانية الكاملة .

كانت الصالة مزدحمة برجالات الاسكندرية الوطنيين والاجانب حين دخل البطريرك عريضه في عباءته البرتقالية الداكنة وقلنسوته الصغيرة القرمزية التي تستر من شعره الابيض الناعم قليلاً وينسدل من تحتها على اكتافه كثير كما تنسدل لحيته الناصعة . دخل في مشية هادئة رزينة فاستقبله باسيلي باشا وسار واياه الى مائدة الاكرام واحاطها الكبراء . وكان كثيرون من الاجانب لا يعرفون العربية التي تحدث بها البطريرك وكثيرون منهم كانوا رغم ارهافهم آذانهم لا يكادون يسمعون الا لماماً من هذا الصوت الرقيق المتهدج ولكن اثير الغرفة كلها كان مملوءاً بحياة روحية سامية تخشع لسموها العقول والقلوب . وكانت الكلمة التي القاها باسيلي باشا في تحية ضيفه الكبير صرخة داوية تجاوبت لها الاصداء في اعلاء الفكرة الوطنية والتعاون بين الشعوب الشرقية .

واصبحت وطنية باسيلي باشا مضرب الامثال شهد له بها القريب والبعيد فلما عقدت معاهدة التحالف بين مصر وبريطانيا العظمى بعد مفاوضات طويلة قام بها رفعة النحاس باشا في لندن أنعم مجلس الوصاية الموقر على فريق من اكابر الوطنيين وعظمائهم بمختلف الرتب والنياشين وكان الفقيد في طليعة الذين انعم عليهم برتبة الباشوية الرفيعة وكان لهذا الانعام رنة فرح في طول البلاد وعرضها دلت على مكانة الباشا الرفيعة وتوالت عليه رسائل التهنئة من كل حدب وصوب واخذ الشعراء ينظمون القصائد لتهنئته بهذه المناسبة السعيدة من ذلك قصيدة للمرحوم الاستاذ فريد حداد وقد ضمنها تاريخ العام واخرى للشاعر الاديب نمر افندي غبريل ننشرهما فيما يلي :

قصيدة المرحوم الاستاذ فريد حداد

كم جدَّ في طلب المعالي أسعدُ ... وطوى العقاب بعزمة لا تخمدُ
هل راعه ما اربدَّ في آفاقها ... أو صده عنها المحيط الازبدُ
قحم الصعاب ففلها وسلاحه ... إقدامه وذكاؤه المتوقدُ
يا ايها العلم المتوج بالحجى ... والعلم صرحك في العلاء موطدُ
جليتَ في مضمارها متدرعاً ... والحزم يعصم من يجد ويعضدُ
لك في ذرى اهرام مصرٍ معقل ... سامٍ على الأُس الوطيد مشيدُ
فانعم فقد نلت السعادة والمنى ... والى الكنانة عد فعودك احمدُ

حياك تاريخ تباهى وازدهى　　فاسعد باسنى رتبة يا اسعدُ
٤١٨　　٣٣　　٢١٥　　١٢٣ ١٠٠٢ ١١ ١٣٥

قصيدة الشاعر الاديب الاستاذ نمر غبريل

هنيئاً ربيب العلى باللقبْ　　فانت الجدير باسمى الرتبْ
وانت العصامي لم تتكل　　على جاه آلٍ ولا عون أبْ
وعندك ان الحياة كفاح　　يفوز بخيراتها من غلبْ
لك العزم والحلم والعلم قد　　بلغت الاماني بها والاربْ
وشيدت من خالد الذكر صرحاً　　يطاول فخراً قصي الشهبْ
وكم من نؤوم اذا لمته　　تجده لخير الجدود انتسبْ
وما نفع قوم بانسابهم　　وهم يستطيبون عيش الوصبْ
وحقك ليس انتساب البنين　　لاجدادهم في قديم الحقبْ
سيرجع من سالف المجد شيئاً　　ويحيي دوارس خير النسبْ
ليهنك فخر ظفرت به　　سيغنيك عن ترهات الحسبْ
فقد سار ذكرك في كل صقع　　قرين الوقار قرين الادبْ
يشار اليك بمصر جهاراً　　بانك فيها مليك الخشبْ
ووالله انت مليك السجايا　　مليك الخصال مليك النشبْ
فعالك فاحت اريجاً ذكياً　　نوالك فاق حدود الطلبْ
وها نفحة منك بالامس قامت　　دليلاً على الكرم المحتجبْ

وبرهان حب لمصر تبدى يزيل الشكوك وينفي الريبْ
تقبل من الشعر تهنئة بها قمت بالبعض مما وجبْ
وما هي الا شعور فؤادي وقد دب فيه دبيب الطربْ
ولو كان في الطوع كل المنى لكنت نظمت عقود الذهبْ
فمثلك يكسو المعاني جلالاً ويزهو به نظم شعر العربْ
وان العلى لو سعت لم تجد سواك جديراً بهذا اللقبْ

الوفَاة

مضى المرحوم اسعد باسيلي باشا الى غاية الحياة في مساء ١٣ مارس سنة ١٩٤٠ وكانت وفاته بانفجار في الشرايين . وقد ظل الى الشطر الاول من الليل كأحسن ما يكون صحة وأطيب ما يكون حديثاً . قضى جانباً من نهاره في مباشرة اعماله التجارية ، ثم تريض وعاد الى داره لا يشكو ألماً ولا يفكر إلا فيما قد ينفع الناس به من مبرات واخذ يتحدث الى افراد اسرته حديثاً مطارحاً متجاذباً ثم اذا بالردى يعدو عليه فيطويه وتغيب شمسه المنيرة الى الابد ، ويحتجز الموت ضوءها الساطع وتذهب تلك النفس الكبيرة الى بارئها وقد تركت وراءها من المجد ذكرى لا تموت

وقد انتشر نعيه في جميع البلاد وسرى مسرى البرق فكان الارتياع اشبه الاشياء بوصف ما اصاب الناس من ذلك النبأ الهائل لان الاذهان

لم تتمهد لسماعه ، وقد اهتزت اسلاك البرق بالنبأ وتقاطر العظماء على داره وقد تولاهم الذهول واستحوذ عليهم الوجوم

اما طائفة الروم الارثوذكس الوطنيين التي كان زعيمها بلا منازع فلا عجب ان فتّ الاسى في عضدها وتخاذلت قواها وأحست كأن الردى يحاربها في خير ابنائها . وكأن قلبها من هذه الحرب يكاد ينخلع فانها فقدت بفقـده الزعيم الامين الساهر على مصالحها ، والذائد عن حقوقها ، واكبر ركن من اركانها

كذلك فقدت مصر بفقده رجلاً من اعاظم رجالها ، لان المجد المادي والادبي الذي احرزه الفقيد كان مجداً لمصر ، وكان ارتياع البلاد لموته شهادة بالمرتبة التي وصل اليها بجده واجتهاده وذكائه وعبقريته

وهكذا استطاع الموت ان يطفىء تلك الشعلة القدسية المتوهجة التي سارت اضواؤها كل مسير ثم لمس الناس لديها غرور الحياة وباطل زخرفها وعرفوا عندها

انما الدنيا شجون تلتقي ... وحزين يتأسى بحزين
ضحك الدنيا احتشاد للبكا ... وأغانيها معدات الانين

وفي عصر اليوم التالي للوفاة شيع الفقيد كما ينبغي له من التجلة والولاء وكانت داره مزدحمة بالعظماء والكبراء وقد قصدوا اليها ليشتركوا في الجنازة ويتزودوا النظرة الاخيرة من الرفات المسجى في نعشه ، وما أوفت الساعة الرابعة بعـد الظهر حتى كانت الصفوة من

رجال الاسكندرية ومن قدم اليها من القاهرة والاقاليم محشودة بين البيت والمقبرة فلا يتحرك السائر في تلك الطريق الا اندفاعاً وزحاماً

وقد دفن جثمانه الطاهر باحتفال كبير مشى فيه العظماء والكبراء وممثلو مختلف الهيآت والطوائف وتعاقب الخطباء والشعراء يؤبنونه ويعددون صفاته العالية

كلمة سيادة المطران نيقولاوس عبدالله

ماذا اقول في رثائك ايها الفقيد الكبير ، والفكر مرتبك بمفاجأة موتك واللسان يتلعثم بصدمة الحزن عليك

ان روحك التي فارقتنا الى عالم الخلود ترى دموع ذويك تنهمر حسرة عليك وقد كنت — كما نطق ألم زوجتك وهي تندبك — ملاكاً لاسرتك ، نعم ملاكاً حارساً اميناً وديعاً لا يفتدى بالدموع

نرى جذوة الحزن تلفح الوجوه بنسماتها المحرقة ، والجميع يتحسرون عليك وعلى ما نفقده في شخصك الكبير المحترم الحبيب لدى القريب والبعيد على السواء

ان حسرتنا ليست حسرة على غني مات ، فالاغنياء كثيرون وفي كل يوم يموتون ، انما الحسرة على خير معلم يقتدى باقواله ، ويهتدى باعماله ، ترك للاجيال خير مثال للتحدث بعبقريته والاعجاب بفضله

ايها الفقيد العظيم

نشأتَ في بلدتك اديباً ولـكن مجال تلك البلدة ضاق بعالي همتك ونزعات نفسك الابية الحرة ، فكما لجأ مخلصنا قبلك الى هـذه الديار لجأتَ انت كذلك الى ضفاف نيلها طالباً حرية العمل في مضمار الرقي والعمران

حللتَ في هذا البلد الامين واتخذته لك وطناً ، وفعلاً صار لك وطناً

أحببته فأحبك ،

خدمته فأكرمك !

نفعته فرفعك !

لاقاك ابن علم ، فها هو اليوم يودعك رب مال !

اقتبلك غريباً ، فها هو اليوم يشيعك سرياً من خيرة المواطنين

اندفعتَ في ميدان العمل ورأس مالك كان الوزنات الموهوبة لك من الله تعالى الذي تصدر منه كل عطية صالحة ومن لدنه تنحدر كل موهبة كاملة . رأس مالك ذكاء متقد ، همة عاليـة ، حب للعمل ، بل جرأة ودقة في العمل ، وامانة تسترشد بنورها في كل شؤونك ، غير مستسلم لما يسمونه حظوظاً واقداراً ، بل متكلاً على عناية الرب ، مستعيناً بقدرته وشعارك في كل حال : ان على الانسان التفكير وعلى الله التدبير ...

نزلتَ ميدان الاعمال الحرة تزاول الاشغال التجارية وتجول في

الدوائر الاقتصادية جولاتك فوفقك الله في اعمالك ، وقد نفث خيراته وبركاته بين يديك

اكتسبتَ اسماً طيباً ، والاسم الطيب خير من الثروة الوافرة !

لم تتأثر بالغنى ، والغنى خطر على اربابه ، فلم تفارقك الوداعة ولا التواضع ولا الدماثة ولا البساطة في كل مظاهر الحياة وادوارها ، بل كنتَ الى آخر ساعة من حياتك محبوباً عند الوضيع ، محترماً عند الرفيع

لم تنسَ في غناك فضل العلم ، ولم تنقطع عن تذوق حلاوته بل كنتَ نصيراً له ولرجاله ، وأقرب شاهد لي على ذلك تبرعك الاخير لطبع تاريخ الكرسي الانطاكي

احببتَ الفقير والمحتاج فكنت رجل الاحسان المنظم منه والمنثور . تفعل الخير بلا تمييز ولا تفرقة ، بغير ضجة ولا طنطنة ، فان خير الاحسان ما لا يدري به الانسان

انصرفتَ في العهد الاخير الى اعلاء شأن طائفتك وتعزيز كلمتها .
استعنتَ بخيرة رجالها لتنظيم امورها ، رسمتَ لها خطة ، سرتَ في تطبيقها ، بذلتَ في رقيها من مالك ، بل كرستَ لها جزءاً كبيراً من روحك ومن قلبك وهذا أثمن من المال !

نادت بك زعيماً وعلقت عليك آمالها ، وما كادت تتذوقها حتى جاء فراقك الاليم وحطم هذه الاماني

ان دموع قلبي وقلب الطائفة لأحرّ وأغزر من دموع العين

عليك ! نحن لا نستسلم لليأس ولا نحزن حزن باقي الناس الذين لا رجاء لهم بل حزن من يملأ الايمان بالله قلوبهم فأملنا عظيم ولنا في ورثة الفقيد ارملته واولاده الاعزاء خير تعزية لانهم ورثوا خصال عميدهم الكريم وسيحيون بجلائل الاعمال والمآثر والمبرات ذكرى من عاش بينهم سعيداً وفي لقاء ربه وخالقه نسأل له ان يكون ذا حظ أسعد !

كلمة الاستاذ علي شكري خميس

بالنيابة عن الغرفة التجارية المصرية

وألقى الاستاذ علي شكري خميس كلمة الغرفة التجارية المصرية وقد استهلها مشيراً الى الخسارة الفادحة التي منيت بها الدوائر التجارية بفقد عميد التجار وكبيرهم والقدوة التي تقتدى في الاستقامة والشرف وعنوان النشاط والعبقرية التجارية

واشار بعد ذلك الى الناحية الانسانية في الفقيد الكريم فقال انه عاشره عن قرب ولمس فيه قلباً يخفق حباً للخير وللانسانية فقد كان نقي الضمير ، رحيم القلب ، تغمره طبيعة الخير من جميع نواحيه

وقال في ختام كلمته ان مصر فقدت بفقده رجلاً من صفوة مفكريها ومن خيرة ذوي الرأي الصائب الحصيف وسوف تذكره في الملمات وهيهات ان تهتدي الى من يسد فراغه ويشغل مكانه

ثم ودعه بكلمات مؤثرة اسالت العبرات

دمعة الاسى

على فقيد الجاه والمبرات المرحوم اسعد باسيلي باشا

لا تقل مات ، انما هو ناما | فالمنايا تخشى الرجالَ العظاما
مات طفلاً من شاخ يرعى هواه | عاش دهراً من مات يرعى الذماما
كلما دار عن نخارٍ حديثٌ | عطرت ذكراه حديث الندامى
« واذا كانت النفوس كباراً » | يزدري عزمها الامورَ الجساما
همةٌ فاضتِ المآثرُ منها | فاشتكى العمر فيضها والزحاما
ارهقت دورة الزمان قواه | فتراءت ساعاته اياما
فطنةٌ يسَّرت مُحالَ الاماني | ودهاءٌ قد حقّق الاحلاما
صغرت عنده العظائم حتى | أصبحت عند حزمهِ اوهاما
وارتقى سلَّم المعالي تباعاً | فتدانت له مقاماً مقاما
واستوى فوق ذروة المجد حتى | حسدوا فيه حظه البسَّاما
شاد فيها من المبرَّات صرحاً | نشر الخير فوقه اعلاما
طالما حجَّتِ العفاةُ اليه | وتنادت ارامل ويتامى

ooo

أسعد الراحلين نفساً وعقلاً | وخلاقاً ونعمةً وسلاما
ملأت نفسُكَ الحياة جهاداً | فاستجابت مرادها استسلاما
وقست نفسُك الطموح فناء الـ | ـجسمُ بالحمل واشتكى الاسقاما

واذا تخلُدُ الحياة نفوساً اتراها تخلَّدت اجساما ؟
عظمت نفسك الكبيرة حتى ضاق عنها الجسم الهيولي مقاما
نفضته لتستقلَّ خلوداً وذرت هيكل الحياة حطاما
ثم طارت بجانحي برها في ملكوتِ الارواح اذ تتسامى

ooo

هل لنا منك في الليالي نجيٌّ ينتضي عن سر الوجود اللثاما ؟
يا ترى هل هناك ندوةُ صحبٍ يتحامون في الجدال الخصاما ؟
بينهم خدنك الحميم المصافي «فرحٌ»[1] من على ولائك داما
علَّه لم يزل يثير قضايا الحق م والحق قد توارى الغماما
انتم الآنَ في صميم الخفايا هل فهمتم ما حيَّر الافهاما ؟
اخبرونا أين الحقيقة كيلا ننتضي للخصام فيها حساما
جُنَّتِ الناسُ في قتالِ فناءٍ اذ يرى ذا حلال ذاك حراما
نازعوا الله ارضه وجناها وتمادوا فيما براه اقتساما
وتعاموا عن انهم حشرات فانيات والله لا يتعامى
ان تفانوا فالملك لله يبقى فائض الخير ، فالقتال على مَ
بئس هذا الانسان قد فاق عقلاً وتدنَّى خُلقاً فجنَّ اجتراما

ooo

آل باسيلَ حاذروا ان تنوحوا ليس يُبكى من قد اذلَّ الحماما

---

(١) فرح انطون الذي كان عشير الصبا والصديق الحميم للمرحوم الباشا

ما نأى عنكمُ سوى بعضه الفا ني ، ولكن اقنومه الحرّ داما
عندكم من آثاره وسناه ما يلاشي الزمان عاماً فعاما
ليس من مات خالد الذكر ميتاً انما الميْت من صحا ليناما

الاسيف نقولا حداد

أثر مكلوم

قصيدة الاديب انطون كانك

لهف نفسي على فقيدٍ تفرّدْ بصفات هي النبوغ المجرّدْ
لهف مصرٍ لهف الشآم على من شاد للموطنين مجداً مخلدْ

ooo

خاض بحر الحياة والعود رطبٌ علمته الحياة ان يتجلدْ
صادمته الصعاب من كل صوبٍ لم يلنْ للصعاب أو يترددْ
كافح الدهر في شبابه حتى وثق الدهر ان خصمه اسعدْ
فحنى ظهره مطية مجدٍ وارتقاها مَن حقُّه ان يمجّدْ

ooo

هكذا هكذا الرجال وإلاَّ فحياة الانسان حلمٌ مبددْ

ooo

يا عميداً زان التجارة دهراً أتراها ترضى بغيرك فرقدْ

ما رأت عينها شبيهك قبلاً ... ثاقب الرأي في الشجاعة اوحدْ
كنت فيها النبراس خُلقاً وعلماً ... واعتصاماً بالحقِّ والحقُّ يشهدْ
لم تهن عنـدك الصغائر يوماً ... لا ولا فاتك النهوض بمُـقعدْ
جمعتْ حولك القلوب صفاتٌ ... لم ينلها من قبل غيرك مفردْ

ooo

يجمع المال بعضهم لغرورٍ ... بئس صرحٌ على الغرور يشيدْ
وجعلتَ الاموال سلّم خيرٍ ... ومجـالاً للبر غير مقيدْ
فأتتك الـكنوز طوعاً تؤدي ... واجب المجد في سبيل معبَّدْ
هـكذا المال ان اردته خيراً ... كان خيراً او عاث شرًّا وافسدْ

ooo

يا عميـد النبوغ مهلاً فإنَّا ... ما عهدنا النبوغ قبلك يُلحدْ
كيف ترضى السـكون بعد حياةٍ ... ملئت بالنشاط والجد والـكدْ
لهف قلبي على نشاطك يخبو ... لهف روحي على نبوغك يُفقدْ
لهف قلبي على رصانة عقلٍ ... تقطع المشكلات قطع المهندْ
لهف نفسي على سماحة نفسٍ ... تترك الصعب في الامور ممهدْ
لهف روحي على اديبٍ كبيرٍ ... بذَلَ المال للفنون وأيَّـدْ
لهف قومي على زعيمٍ كريمٍ ... ما توانى في واجب او تقـاعدْ
ليت شعري ماذا التاهف يجدي ... أَفلَ النجم وانتهى مات « اسعد »

صدى نعيه
في الصحف المحلية

يضيق بنا المقام لو حاولنا الاشارة الى كل ما نشرته الصحف المحلية العربية والاجنبية عن الفقيد الكريم . لذلك نجتزىء بذكر ما نشرته بعض الصحف العربية الكبرى .

قالت « المقطم » الغراء :

نعى الناعي رجلاً كان اسمه الى الامس ملء الافواه واعماله ونشاطه ومبراته ملء الاسماع . هو المغفور له اسعد باسيلي باشا تاجر الخشب الكبير في الاسكندرية والعصامي الذي بنى مجده بجده وعبقريته واستقامته حتى اصبح من كبار رجال الاعمال في هذا القطر نخسرت به الدوائر التجارية عضداً قوياً وعضواً نافعاً ومثالاً في صدق المعاملة وعنواناً على التاجر الشريف القدير ، وخسرت به غرفة التجارة المصرية في الثغر وكيلاً عاملاً ، وخسرت به طائفة الروم الارثوذكس ركناً

من اركانها وكبيراً من كبرائها البارزين ، وخسرت الهيآت الاجتماعية في الاسكندرية رجلاً يملأ المجالس بهجة وسروراً بحلو حديثه وعذوبة منطقه ولطف معشره ، وخسرت به معاهد البر كريماً مبسوط الكف سخي النفس في العطاء ، وخسرت به اسرته زوجاً باراً اميناً وأباً شفيقاً وعميداً محبوباً . ولم يكن المرحوم اسعد باشا تاجراً فقط بل كان كذلك اديباً نال نصيباً وافراً من اللغات والعلوم ولا سيما ادب اللغة العربية فالرزء فيه عظيم والخسارة فادحة . تغمده الله برحمته ورضوانه وألهم حضرات ارملته وانجاله واقربائه واصدقائه جميل الصبر على فقده .

ooo

ونشرت جريدة « **الاهرام** » بتوقيع « الصحافي العجوز » كلمة نجتزىء منها ما يلي :

ثلاثة من شباب طرابلس الشام الناهض هبطوا الى ارض الفراعنة لاربعين سنة خلت ونيف

السيد رشيد رضا ، وفرح انطون ، واسعد باسيلي .

وقصد السيد رشيد العاصمة وانشأ مجلة « **المنار** » واشتغل بالاصلاح الديني والسياسة الشرقية وسافر الى الهند واوروبا وتركيا وعمل مع جماعة « اللامركزية » و « الجون تورك » .. ولاقى الكثير من خصومه وتوفي منذ سنوات مخلفاً تركة علمية كبيرة .

وبقي فرح انطون واسعد باسيلي في الاسكندرية وكان في نيتهما انشاء صحيفة يومية ولكنهما لم يتفقا على التفصيل فانصرف فرح انطون الى الادب وانشأ مجلة « الجامعة » وحرر « صدى الاهرام » وكتب في فلسفة اوجست كونت ونيتشه وشوبنهور . ورحل الى اميركا وعاد الى مصر واشتغل بكتابة الروايات التمثيلية وحرر في الصحف السعدية ومات تاركاً آثاراً قيمة في الادب والاجتماع والفلسفة .

وانصرف اسعد الى التجارة وهي مهنته في طرابلس .

فقد تلقى علومه في مدارسها وظهرت مواهبه الادبية وهو فتى ورغب في الفلسفة وأطال النظر في قراءة سبنسر وزولا وتولستوي .

واشتغل واخوه المرحوم انطونيوس باسيلي في متجر اخشاب معروف في طرابلس ولم يحل العمل دون مزاولة اسعد الادب والنظر في الشؤون العامة فانتخب عضواً في الجمعية الخيرية للروم الارثوذكس وتولى الاشراف على مدرسة مار الياس وراسل صحف القاهرة وبيروت ومجلاتها العلمية والادبية .

وبعد ان وصل الى الاسكندرية ولم يتفق مع المرحوم فرح انطون على انشاء الصحيفة اليومية فتح محلاً لتجارة الاخشاب وكان لهذه التجارة رجال اشداء وماليون معروفون محتكرون السوق ولكن اسعد باسيلي تمكن بحذقه ودربته من ان يكافح ويجاهد ويشق طريقه بينهم فسيطر على السوق وأصبح بحق « ملك الخشب » واصبحت

الالوف القليلة من الجنيهات التي بدأ بها عمله مئات الالوف من الجنيهات اقتناها بمواهبه ويقظته وانتهازه للفرص .

ولبث مشتركاً مع اخيه انطونيوس في العمل حتى توفي اخوه في سنة ١٩١٧ واخذ اولاده نصيبهم من الشركة وانفرد اسعد بالتجارة . وفي وادي النيل عامة والاسكندرية خاصة غير واحد نالوا ما ناله المرحوم اسعد باسيلي من الثروة والجاه في عالم التجارة ولكن اسعد باسيلي انفرد بأن التجارة لم تلهه عن الادب والاحسان وحب الفنون فقد كتب عدة مقالات في الفلسفة والادب وعلاقة العلم بالدين وفلسفة سبنسر في « الجامعة » ونشر مقالات اقتصادية في « المقطم » وكان كثير العطف على الادباء فشجع جمعياتهم المعروفة في الاسكندرية ومنح جائزة لمباراة ادبية في المقتطف وعاون بماله المستشفى الخيري لجمعية المؤاساة ومنشآت جمعية العروة الوثقى وتبرع بمبلغ خمسة آلاف جنيه لمشروع الدفاع الوطني .

ورأس المجلس الطائفي للروم الارثوذكس بالاسكندرية وكانت مساعيه ونفوذه من أقوى الاسباب لحل الاشكال القائم بين الوطنيين واليونان بشأن الرياسة الدينية . وفي عهد رياسته انشىء النادي الارثوذكسي للشبان بمال باسيلي باشا وحدث ولا حرج عن احساناته الخفية للعائلات المستورة .

هذا هو الرجل الذي فقدناه اليوم وفي حياته خير درس للجيل الحاضر وللاجيال القادمة.

ooo

وكتب الاستاذ شارل شميل صاحب جريدة « البصير » ورئيس تحريرها الكلمة الآتية :

فجعت اسرة باسيلي الكريمة في عميدها ، وفجعت طائفة الروم الارثوذكس الكبيرة في ركن من اركانها ، وفجعت مدينة الاسكندرية في عين من اعيانها ، اذ فاجأت المنون رجل الفضل والادب والجاه المرحوم المأسوف عليه اسعد باسيلي باشا فاختطفته في لحظة بصر من حضن اسرته ومن عقر داره بينما هو يتحدث الى ذويه واخصائه بوداعة وبشاشة وبعد ان استراح من وعكة بسيطة كانت قد ألمت به في المساء ولم يرَ فيها الاطباء ما يثير قلقاً او يترك اثراً

فارق الفقيد الحياة حيال الساعة الثامنة مساء وما هي إلا دقائق حتى انتشر الخبر المشؤوم في المدينة فامتلأت داره الرحبة ، تلك الدار التي كانت حتى هذه الايام الاخيرة محجة الافاضل والكبراء والاعيان والادباء ومقر الانس والضيافة وكرم الاخلاق ، بجمهور من الاهل والاصدقاء ، وقد استولى عليهم الذهول لفداحة الخطب فلم يأتوا الى ارملة الفقيد الفاضلة واولاده الادباء معزّين او مجاملين ، بل مشاطرين المصاب مشتركين في التحسر والبكاء على نفس كان يخيل للجميع انها

لم تعد بعد ارتقائها في معارج الكمال الادبي والفكري ملك اسرة او طائفة خاصة .

قيل وسيقال بحق عن الراحل الكبير انه كان عصامياً ، والعصاميون كثيرون في عالم اتسعت فيه ميادين النشاط للمجدّين الاذكياء . وقيل وسيقال عنه بحق انه كان كريم الاخلاق ، وكرم الاخلاق فضيلة غريزية لم يكن صعباً التحلي بها على من قدّر له ان يصل الى المنزلة المالية التي بلغها اسعد باسيلي باشا . ولكن الفقيد كان اكثر من هذا وذاك . فقد امتاز على العصاميين والسراة بميزة خاصة عرفها المقربون منه الذين تتبعوا ادوار حياته وشهدوا كفاحه ، وهي عظمة طبيعية ارتقت به الى مستوى نفسي لم تبدُ عنده الثروة إلا كواسطة او اداة لا قيمة لها في حد ذاتها ، وكان كلما علا شأنه في عالم العمل وتوطد مركزه المالي ، ازداد رسوخاً في هذه الميزة وضاعف السعي للتحرر من تلك السلاسل الذهبية التي تقيد النفوس الضعيفة وتشل فيها الشعور المستقل .

ولعل السر في ذلك ان باسيلي باشا نشأ اديباً وعاش اديباً ومات اديباً ولم ينسهِ جاهه في اي وقت من اوقات حياته العملية ان الدنيا مراتب وان لثمار الفكر من فن وأدب مرتبة لا ترتقي اليها المادة مهما علت اكداسها ، ويعلم اخصاء الفقيد انه لم ينقطع يوماً عن المطالعة والدرس وانه كان كثير الاتصال بالادباء شديد العطف عليهم عظيم

الاهتمام بمؤلفاتهم ، وانه كان يقدر الناس قدرهم الحقيقي ولا يغتر بالمظاهر الخلابة ويعنى دائماً بوضع نفسه في مستوى محدثيه مهما قلّ شأنهم . وكان تواضعه وبساطة معيشته في تلك البسطة من العيش التي وهب اياها تطبيقاً ملموساً لفلسفة في الحياة هي حصة الادب في تكوين شخصيته الفذة .

وقد كان للادب فضل آخر على هذه الشخصية فانه وهبها شعلة الشبوبية ونشاطها وتفاؤلها وابتسامتها وسماحتها ، ثم اخلاصها في الصداقة ومروءتها ووفاءها ولم تزد الشيخوخة هذه الصفات إلا ظهوراً واكتمالاً فكملتها بالخبرة والحنكة والحكمة وسلامة التفكير .

هذا كله فقدته اسرة باسيلي باشا واصدقاؤه وعملاؤه في ثوانٍ معدودة ولكن القدر المحتوم الذي اطفأ تلك الشعلة الوضاءة لن يقوى على محو ذكرى باسيلي باشا من قلوب الذين قدّر لهم ان يعرفوه عن كثب ويكتشفوا سرّ شخصيته ويشعروا بجاذبيتها .

مختارات

من آثاره الأدبية

مملكة ابن السماء (١)
أسباب انحطاطها

كانت الدول الاوروبية الى ما قبل الحرب الصينية الاخيرة معترة بقوة ابن السماء تخامرها هيبة وخشية من جثته الماثلة فلم تكن تحاول ان تنتزع منه بالقوة والجفاء ما لم تكن تقدر عليه بالرفق والمسالمة . اما بعد انتصارات اليابانيين التي ادهشت العالم وازاحت الستار عن هرم تلك الدولة وفراغ جثتها الضخمة فلم تعد الصين في أعين اوروبا قوة تهاب ولا حليفة يرجى تحالفها بل اصبحت فريسة يتنازعون اشلاءها ويحاول كل منهم ان يكون له منها اللقمة الكبرى . هكذا يفعل الاقوياء بالضعيف بحكم تنازع البقاء فليتدبر الضعفاء .

وما احق شرقنا بهذا الاعتبار بل ما اجدر كتابه ان يتساءلوا الآن ما هي اسباب انحطاط تلك الدولة العظيمة وكيف ان هذا الشعب

(١) نشرت بمجلة الجامعة العثمانية بالعدد الصادر في ابريل سنة ١٨٩٩

الصيني الذي بلـغ في الشرق الاقصى من العزة والمنعة والسؤدد مبلغ الرومانيين على شطوط البحر المتوسط صار الى الضعف الذي هو عليه الآن .

لانحطاط الصين اسباب كثيرة منها ما يرجع الى الشعب الصيني ومنها ما يرجع الى حكامه . إلا ان اول العلل في تقهقر هذه الامة والآفة الكبرى التي تنخر عظمها من زمن طويل حكومتها القاصرة المدارك الفاسدة الاحكام التي جمع رجالها مع الجهل والرشوة الكبرياء واعتقاد الكمال بتعليم السلف فوقفوا في سبيل كل تقدم الى الامام لا يرون عما خطه السلف محيصاً .

ولم نقف فيما كتب عن الصين الى الآن على كيفية نظام حكومتها بالتدقيق الا انه من الثابت ان مناصب الحكومة الصينية وخططها السياسية هي كلها في ايدي الطبقة التي يقال لها عندهم طبقة المتأدبين او العلماء فبيان احوال هذه الطبقة يدلنا من أين يأتي الوهن السياسي والخلل الاداري المستوليان على حكومة الصين فلا بدع ان نسهب بذلك قليلاً ..

ليس الدخول في سلك العلماء محصوراً بفئة من الصينيين دون سواها بل هو مباح لجميع افراد الرعية على السواء يشترط فيه فقط اجتياز الامتحانات المعينة وتقسم هذه الامتحانات الى ثلاث درجات ينال الطالب بعد اجتياز كل منها رتبة علمية ويمكننا ان نشبه هذه الرتب

— بعد التسامح الكلي — بالرتب العلمية الثلاث المستعملة في اوروبا وهي البكالوريا والليسانس والدكتوراه . وللعلماء مقام خطير ونفوذ عظيم عند الصينيين ومن اعظم الشرف عند اسرآتهم ان يكون احد ابنائهن من هذه الطبقة ولذا نرى الكثيرين يتهافتون لاحراز لقب العالمية تهافت الجياع على القصاع وحسبك دليلاً انه في عام ١٨٩٧ تقدم في مدينة نانكين الى امتحان الرتبة الثانية اربعة آلاف طالب في حين ان من قبلوا منهم لم يتجاوزوا مائة وخمسين .

وليس يراعى دائماً جانب القانون في هذه الامتحانات فقد يحابي الممتحنون احياناً ويتساهلون لمن يشاؤون . وحسبك ان ابناء علية الموظفين واقرب اقربائهم يقبلون بسهولة في الامتحان ويجتازونه بلا تعب ولكن ليس هؤلاء الممتازون غير آحاد اما بالاجمال فالرتب العلمية لا ينالها الطالب إلا بكفايته واهليته .

إلا ان اجتياز الامتحانات واحراز الرتب العلمية لا يكفي وحده لنيل منصب في الحكومة فان أغلب المناصب في الصين تشترى بالمال وقيمة المنصب تكون على قدر اهميته فعندما يظهر رجل يتوسم القوم فيه الذكاء والاقتدار على اجتياز الصعوبات التي تعترض سبيله تتألف شركة تجارية باسمه فتقرضه المبالغ اللازمة لشراء المنصب الذي يطلبه . ولا تسل عما يدفعونه من المبالغ الطائلة ثمناً لتلك المناصب القليلة الرواتب ولا عما تستورده تلك الشركات من الارباح اجرة لها وفوائد المبالغ التي

تقرضها . ذكر الكاتب الفرنسي بيير لروا الذي نعتمد عليه في بحثنا هذا ان منصب والي شنغهاي الذي يبلغ راتبه السنوي ستة آلاف ريال صيني ومدته الى ثلاث سنين فقط ابتاعه بعضهم في اواخر العام الفائت بمبلغ مائتين وخمسين الفاً من الريالات الصينية . ومن البديهي انهم لا يدفعون هذه الأثمان الفاحشة إلا على رجاء تحصيل اضعافها من اموال الرعية . فياويح تلك الرعية المسكينة كم تحمل من المظالم والمصادرات وكم يبتز منها من الاموال لاشباع بطون اولئك الموظفين وشركائهم .

ومما هو شرّ من هذا الاتجار بحقوق الرعية صنوف العلم التي يطلب من الطلاب الامتحان فيها فهي مقصورة على علوم اللغة والادب والمعارف المدرسية واساس هذه المعارف مؤلفات كونفوشيوس اولاً يتبعها مؤلفات تلامذته والفسيوس ثم الفلاسفة القدماء من عشرين قرناً . ويضاف الى ذلك كله اساطير السلف وجميع التواريخ القديمة . فالذي يتحتم على الطلبة استظهاره يبلغ المئات من المجلدات مما يقتصر اثره على تقوية الذاكرة فقط . اما الانشاء فحسنه عندهم قائم بأن ينتقي الكاتب من الستين الف حرف التي تتألف منها الكتابة الصينية ما هو نادر الاستعمال ولا يوجد إلا في زوايا بعض الكتب القديمة وذلك بدلاً من استعمال ما يرادفها من الالفاظ المألوفة . ولذا ترى جل ما يحثون عليه الطلبة في التعليم الاعدادي ان يستظهروا قدر الاستطاعة من هاته الحروف وتلك الفقرات الحرفية ومن استظهر من تلك الحروف من

ستة آلاف الى ثمانية آلاف حرف عُدَّ من المتنورين . وكثيرون من جلة العلماء يستظهرون منها ما يبلغ العشرين الفاً فليتصور القارىء في اية حال من الكلال يكون عقل رجل قضى معظم اوقات صباه يحشو ذهنه بمجلدات من اساطير السلف بعباراتها والفاظها ويستظهر الوفاً من الحروف والعلامات التي لا يمتاز بعضها عن بعض إلا بمميزات طفيفة .

وقد قصدوا مؤخراً ان يصلحوا قليلاً في مواد الامتحانات باضافة اشياء اليها مما يسمونه عندهم تعليم الغرب الحديث فاضافوا بعض الاسئلة الفلكية الى اسئلتهم العادية المبنية على انتقاد المدرسيات وتفسير قواعد كنفوشيوس وتطبيق الاسماء الجغرافية الحديثة على اسمائها القديمة . من ذلك ما هو قطر دائرة الشمس الظاهر ؟ وما يكون قطر الارض اذا رؤيت من الشمس او من سيار آخر ؟ ولكن انظر الى السؤال الذي يأتي بعد هذا فهو يدلك على مبلغ ادراك الفاحصين وحالة عقولهم ولك ان تتخذه مثلاً لباقي الاسئلة التي تلقى عادة واليك هذا السؤال : لماذا يكون الحرف الكتابي الذي يمثل القمر مغلقاً من الاسفل والحرف الذي يمثل الشمس مفتوحاً ؟ ولا بد للطالب من الجواب على هذا السؤال يستخلصه من كتب السلف . على ان هذا الانتقال الى السؤال الثاني بعد الاول يدلنا كم للطبيعة من الحكم الغالب ولله در القائل :

واسرع مفعول فعلت تغيرا   تكلف شيء في طباعك ضده

إلا ان ما احدثوه من هذه الاصلاحات العلمية القليلة لم يغير شيئاً في اسئلتهم التقليدية في البيان واللغة . ولم تزل المواضيع التي يطالب الانشاء فيها كما كانت عليه في السابق واليك مثلاً منها ننقله عما ذكره الكاتب الانجليزي هنري نورمان : السماء وحدها عظيمة وياد وحده كفوء لها ، ما اسمى فضيلته . فهذه هي امثال المواضيع التي يقترح الانشاء بها فيتوسع الطلاب فيها بسطاً وايضاحاً ويحشونها من المحسنات والزخارف اللفظية ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

هؤلاء هم الرجال الذين يسوسون مملكة ابن السماء وتلك هي مداركهم العقلية فلا عجب ان رأينا الصين سائرة الى الاستعباد والدمار ، صابرة على المذلة والعار ، ان في ذلك عبرة لأولي الابصار ...

مشكلة الزواج [1]
اختيار الزّوجة

الى الذين يقدمون على الزواج مغمضي العيون ،

والى الذين يفتحون عيونهم كثيراً ويقضون شبابهم بين الاقدام والاحجام الى ان يبلغوا الشيخوخة ولا يتزوجون ،

والى الذين لا يريدون بالزواج غير قرن المال بالمال والنسب بالنسب، وعن مقارنة القلوب والاخلاق والافكار لا يسألون ،

اقدم هذه الرسالة وأرغب اليهم ان يجربوا ما فيها وارجح انهم اذا تزوجوا بعدئذٍ فلا يندمون .

ooo

(١) نشرت في مجلة الجامعة بالعدد الصادر في اغسطس سنة ١٩٠٠

— ١ —

امامنا في التمدن الحاضر ثلاثة سبل لقضاء لبانة الحب : الثراء والسرقة والزواج . ولكن الادب والدين لا يجيزان إلا الطريقة الثالثة وهي الزواج اساس العائلة ورباطها الوحيد . اذن ان شئت ان تحب وتلبث شريف النفس مرتاح البال مستريح الضمير فليس امامك غير الزواج.

غير ان الزواج لا يؤدي بنا دائماً الى الهناء بل هو مثل غيره من المبادىء الحسنة بذاتها قد يكون خيراً اذا استعمل فيه ما يجب وشراً اذا اسيء التصرف في استعماله . ولهذا نرى المتزوجين منهم من يجد الزواج نعمة ومنهم من يجده نقمة .

من جهة نرى بسمارك يقول : « ان زوجته هي التي ابلغته ما بلغ » . ولوثر يقول : « الفقر والمسكنة معها خير من جميع كنوز كسرى بدونها »

وولتر سكوت القصصي الانجليزي يعزو معظم نجاحه الى زوجته . ولو جرت العادة عند المشارقة ان ينوهوا بفضل زوجاتهم لأمكن ان ننقل عن مشاهيرهم ايضاً مثل هذه الاقوال .

ومن جهة اخرى نرى الاميرال دى كاستل يقول : « ان الذي يتخذ له زوجة والذي يمضي الى الحرب سواء في التعرض للخطر . ومولبير الفرنسي يقول بلسان حاله : « ان احببت ان تموت غيرة وقهراً فتزوج » . وفي بعض الامثال القديمة : « اذا اردت السفر فصلِّ مرة ، وان اردت ركوب البحر فصلِّ مرتين ، وان اردت الزواج فصلِّ

ثلاث مرات » . والسر جون مور الانجليزي يقول : « ان الذي يريد ان ينتقي له زوجة من النساء أشبه بمن يمد يده الى جراب مملوء من الحيات بينها سلور « انكليس » واحد فمن مائة رجل يمدون ايديهم الى ذلك الجراب تسعة وتسعون تقع ايديهم على حيـة » . وكثيرون من المتزوجين حولنا يقولون مثل هذه الاقوال او اقبح منها .

على انه لو أنصف هؤلاء الناقمون على الزواج والزوجات لما لاموا غير انفسهم اذ ان اكثرهم في الغالب هم الذين يفسدون بسوء تصرفهم هذه الشركة اللطيفة المساة زواجاً وذلك باختيارهم شريكة لا يصلحون لها ولا تصلح لهم . لهـذا ما اخالني مخطئاً ان قلت لكل شاب يريد الحب : تزوج فلا خوف عليك ولا انت تندم ولكن تعلم قبل الزواج كيف ينبغي ان تختار شريكة حياتك ، واليك الطريقة التي يحسن بك اتباعها في الفصل التالي :

— ٢ —

من رأي افلاطون او من تصوراته في الزواج ان الرجال والنساء بمثابة انصاف كرات وكل رجل وامرأة ينفصلان في الاصل عن كرة واحدة فاذا اتفق التقاء تلك الانصاف بانصافها الحقيقية التي تكملها كان الزواج سعيداً وإلا فلا . وعلى هذا الحساب يكون لكل رجل امرأة واحدة تصلح له زوجة في هذا العالم ولكل امرأة رجل واحد يصلح لها ليس إلا .

ولا ينكر ما في هذا القول من التصوُّر . الا انه لا يسعنا القول مع ذلك بأن كل امرأة من فضليات النساء تصلح لكل رجل ولا كل رجل من خيرة الرجال يصلح لكل امرأة . فرب فتاة رائعة الادب حسنة الخصال قد تكون مثال الزوجات الصالحات لا تصلح لزيد وتصلح لعمرو وذلك للتفاوت بينهما .

فاذا تبين لك هذا كان عليك عند اختيار شريكة حياتك ان لا ترتضي بما يقول الكثيرون : هي جميلة ، غنية ، عاقلة ، مهذبة فهي تصلح لك . بل عليك ان تنظر الى الفتاة من حيث نسبتها اليك اكثر مما الى صفاتها الذاتية والنسب بينكما قد تكون طبيعية وهي الميول القلبية والاخلاق والمدارك العقلية والاعمار فضلاً عن الصحة وقد تكون اكتسابية وهي الثروة والطبقة الاجتماعية . ولما كان الوفاق بين الزوجين يتوقف على توافقهما من حيث هذه النسب كان عليك اذاً عند الاختيار ان تسأل :

هل بينك وبين الفتاة تبادل في الميول القلبية وباللغة الفصحى هل تحبها وتحبك ؟

هل بينكما ائتلاف في الاخلاق ؟

هل بينكما نسبة في المدارك العقلية والاعمار ؟

هل بينكما تناسب في الثروة والطبقة الاجتماعية ؟

وسأفرد فيما يلي فصلاً لكل من هذه الفروع . إلا انني ارى ان انبهك اولاً انك باطلاً تجهد نفسك اذا التمستَ توافقاً كاملاً من حيث جميع هذه النسب فان الكمال ليس من هذا العالم فلا ينبغي اذاً ان يكون شأنك شأن ذلك الشاب الاميركي الذي نشر في بعض الصحف الاميركية الاعلان الآتي :

« شاب من اسرة نبيلة يطلب الاقتران بفتاة سنها بين الثامنة عشرة والثانية والعشرين طولها خمسة اقدام واربعة انشات بقطع النظر عن ارتفاع حذائها . دوطتها لا تقل عن خمسة آلاف جنيه . صحيحة جميع اعضاء الجسم لا كثيرة السمن ولا مفرطة في النحافة . لا تفرط في التبرج ولا تهمل النظافة . لا كثيرة الكلام ولا ضعيفة الحجة عند الحاجة . لا عبوسة ولا كثيرة القهقهة . كتومة للاسرار . مقتصدة في النفقات . تفضل الاهتمام بشؤون بيتها وصحة رجلها على لعب البوكر وغشيان المسارح ودور اللهو وتبادل الزيارات فعلى الفتاة الراغبة في الزواج المجتمعة فيها هذه الصفات ان تتكرم بالجواب على العنوان التالي ...» ثم يليه العنوان .

ولست اعلم شيئاً عما ورد لصاحب هذا الاعلان من خطابات ولكن اعتقادي بذكاء الاميركيات يحملني على الظن انه لا بد ان تكون احداهن ارسلت اليه الرد الآتي : « هل انت كامل يا هذا لتطلب هذا الكمال ؟ » ...

وهذا الجواب نفسه يحسن بأن يوجه لكل شاب يتردد في الزواج لانه لا يجد زوجة كاملة .

على انه اذا تعذر وجود الكمال أي الاتفاق التام من حيث جميع النسب وجب ان نقدم الاهم منها على المهم فنطلب اولاً التوافق من حيث النسب الطبيعية وهي الميول والاخلاق والمدارك والاعمار ثم نسأل بعدئذٍ عن مال الفتاة وجاهها وجمالها اذ لا ينبغي ان يذهب عنك ان الهناء والوفاق لا يتوقفان بالاكثر على مال او جاه او جمال بل على تحاب القلب وائتلاف الاخلاق والافكار فان كوخاً صغيراً يسود فيه الحب والائتلاف قد يجد فيه ساكنوه من الهناء والوفاق ما لا تجده القلوب المتنافرة والاخلاق المتناقضة وان كانت تسكن اعظم القصور .

هذه هي الطريقة الفضلى التي يجدر بكل من يروم الهناء الحقيقي بعد الزواج ان يتبعها ولكن في زماننا هذا اين الشبان الذين يقصدون بالزواج الهناء الحقيقي الناشىء عن امتزاج القلب والاخلاق والافكار . دوطة كبيرة . عائلة وجيهة . جمال فتان . هذا كل ما يسألون عنه . اعطيني مالك وسواء عندي اعطيتني قلبك أو لم تعطنيه . الفقير يريد زوجة من الاواسط والوسط يطمح الى الغنيات والغني الى صاحبات الملايين بصرف النظر عن الاخلاق والصفات . فهل تعجبون بعد هذا اذا ندم المتزوجون . . ؟ ؟

الدين والعلم (١)
ورأي الفيلسوف سبنسر فيهما

تمهيد لمجلة الجامعة

قبل القاء زمام هذا الموضوع في هـذه المقالة الى حضرة صديقنا الباحث الفاضل اسعد افندي باسيلي الذي مرت عليه بضع سنوات في درس الادب والفلسفة ومطالعة كتب العلماء فيهما نود ان نضع تمهيداً وجيزاً لمقالته الاولى في هذا الموضوع ايضاحاً للغرض المقصود منها فنقول ان رنان في كلامه عن « العدو الحقيقي للعلم والدين » قال كما ورد في العدد السابق (صفحة ٤٦٢) ما نصه : « نحن على اتفاق تام في هذه المسائل مع رجال الدين » وانما الخلاف الذي بيننا علمي لا ديني . فقلوبنا اذاً معهم وعدونا عدوهم . ونعني بهذا العدو المبادىء المادية الواطئة التي

(١) نشرت بمجلة الجامعة بالعدد الصادر في يونيو سنة ١٩٠٣

لا ترى في الكون شيئاً غير المادة ودناءة بعض البشر (يعني بعض رجال الاكليروس) الذين يرومون استخدام كل امر حتى الامور المقدسة في سبيل مصالحهم الذاتية ...

فيؤخذ من هذا القول انه لا عدو للعلم والدين ألدّ من هذين العدوين وهما : اولاً الذين لا يعتقدون بشيء خارج عن دائرة المحسوسات وينكرون الافكار الدينية ويتحاملون على الاديان ويجحدون مبادئها الاساسية التي مدنت الامم ورقت الشعوب . وثانياً بعض رؤساء الاديان الذين يؤذون الاديان بشراهتهم او بجهلهم او بسوء قصدهم او بانفاذ اغراضهم اكثر مما يؤذيها اولئك الماديون الجاحدون .

فهنا اذاً على محبي الخير للشعوب واجبان عظيمان : الاول مقاومة هؤلاء الرؤساء الذين لا يقصدون بالرياسة إلا قضاء اغراضهم الدنيوية وإلهاء الخاصة والعامة بالظواهر الدينية عن المبادىء الدينية الحقيقية والثاني مقاومة اولئك الماديين الذين يرومون انزال الانسان في منزلة البهائم من حيث انكار كل شيء فيه خروج عن دائرة المادة الدنيئة. ولقد كان غرضنا في نشر كتاب تاريخ السيد المسيح القيام بالواجب الاول وها نحن ننشر المقالات المتسلسلة التالية قياماً بالواجب الثاني . فهذه المقالات اذاً انما هي موجهة الى الجاحدين لا الى المصدقين . ونحن نشير عليهم بأن يطالعوها بامعان ليتحققوا صدق ما قاله رنان ونشرناه في الجزء الثاني من الجامعة وهذا نصه : « ان ابسط الناس المؤمنين في قلوبهم

اكثر معرفة بحقيقة الاشياء من اولئك الماديين الذين يفسرون كل شيء في الحياة بالصدفة وفناء المادة » .

ونحن نشكر حضرة صديقنا الكاتب لاتحافه الجامعة بهذا البحث الذي ليس اقدر منه عليه .

والآن نلقي زمام الكلام اليه

ooo

بين رجال الدين وبعض رجال العلم تناظر قديم العهد يبدأ تاريخه من يوم اكتشف العقل البشري أبسط النواميس الطبيعية فوضع بذلك حداً لعبادة الاشياء المحسوسة . والذي يسوء كل معتدل من هذا العداء ما نراه من تطرف كل من الفئتين الاولى في الاثبات والثانية في الانكار . فمن جهة نرى رجال الدين يبالغون في اثبات آرائهم وينزلون جميع عقائدهم — حتى ما كان منها يعارض العقل — منزلة الحقائق اليقينية الراهنة فيقابلهم رجال العلم بالانكار المطلق وقد يتمادون في انكارهم فيجحدون ان هناك حقيقة قام عليها بنيان الاديان .

وعندنا ان العلم مصيب اذ يعمل على دحض ما غشي الدين من الاباطيل والاوهام لانه اذا لم يكن من شأن النور ان يضع حداً للظلمة فما يكون شأنه ياترى ؟ ألا انه يخطىء كل الخطأ من ينظر الى العقائد الدينية بعين الازدراء والاحتقار ويحسبها عارية من كل اساس .

قال الفيلسوف هربرت سبنسر في كتابه : المبادىء الاولى « ان

القول بأن جميع الافكار الدينية عارية عن الاساس يحط كثيراً من قدر العقل البشري الذي انما عنه ورثت الانسانية ما لديها من الحقائق » .

ومن ذا يأترى يرى رجلاً من نوابغ بني الانسان كأفلاطون وارسطو وسان توما وديكارت و نيوتن وكوزين وغيرهم يشغلون قسماً كبيراً من مؤلفاتهم في البحث فيما وراء الطبيعة واثبات الاصول الدينية العامة ثم يجرأ بعد ذلك على القول انهم انما كانوا فيما كتبوه من هذا القبيل يحيكون اوهاماً باوهام ويشيدون على غير اساس . او لا يبعث على الريبة بجميع احكام العقل ومدركاته ؟

ولسنا نكتفي بهذا القول وحده لاثبات الحقيقة الدينية العامة بل نحن موردون عن ذلك ادلة اخرى معتمدين فيها على ما كتبه الفيلسوف هربرت سبنسر اشهر فلاسفة الانجليز في هذا الزمان .

وجود الافكار الدينية عند جميع الامم

اذا امعنت النظر في تواريخ الامم الغابرة ثم عدت بنظرك الى عمران الشعوب الحاضرة ترى انه ما من امة من الامم قديمة او حديثة خلت من بعض العقائد الدينية ولئن اختلفت تلك العقائد من حيث نوعها ودرجتها في سلم الارتقاء فهل يسلم عاقل بوقوع مثل هذا بالمصادفة والاتفاق ؟ أوليس من شأنه ان يحملنا على ترجيح صحة ما قاله رنان من ان الانسان حيوان متدين اعني انه ذو نزوع فطري الى الدين ؟ الا انهم

يعترضون بوجود قبائل همجية لا نجد عندها ادنى فكرة ابتدائية عن علة الكائنات والخليقة والخلق وان هذه الافكار لم يبدُ لها اثر للوجود إلا بعد اذ بلغ الانسان درجة ما من الترقي العقلي . نجيب ولو صح هذا فلا يفيد شيئاً من النتيجة التي نرمي اليها لانه متى تسلم ان جميع القبائل التي ارتقت مداركها العقلية بعض الارتقاء وجدت عندها افكار دينية ترتب على هذا ان هذه الافكار تنشأ بالضرورة من ترقي العقل وان ما نراه من التنوع بين العقائد يساعد على تأييد هذه النتيجة اذ انه يدل على ان عقائد كل امة نشأت مستقلة عن عقائد الاخرى وان وجود الامم الكثيرة في ظروف واحوال متماثلة مع اختلاف الازمنة والامكنة أدى الى ايجاد افكار متماثلة ونتائج متشابهة .

وزعم آخرون ان جميع ما يذكره لنا تاريخ الاديان من العقائد انما هو مخترعات عرضية وضعها الكهان والزعماء بقصد مخادعة العامة والتمويه عليهم وهذا زعم لا يستطاع اثباته اذ لا يتفق ان يقوم عند جميع الامم القديمة والحديثة المتمدنة وغير المتمدنة افراد من الهيئة يتواطئون على مخادعة الآخرين وتكون الوسائل التي ينالون بها اربهم متماثلة احوالها كل هذا التماثل . واذا قيل ان الاختراع الاولي للدين وقع قبل ان تفرقت طوائف الجنس البشري في انحاء الارض وان الجراثيم الدينية انتقلت مع كل قبيلة عند جلائها عن الوطن الاول قلنا ان علماء اشتقاق اللغات يفندون هذه المزاعم لانهم يثبتون بالادلة ان تفرق الجنس

البشري حصل في زمن لم تكن اللغة قد ارتقت فيه الى درجة يستطاع عندها التعبير عن الافكار الدينية . ومع هذا فلو امكن وجود أدلة تثبت ان الاديان مخترعات عرضية فلا يمكن بهذا الافتراض التعليل عن كل حادث في الدين لانه اذا كانت الاديان مخترعات جماعات متفرقة من الكهان فلماذا نرى تحت الفروع الدينية المتنوعة اصولاً ومبادىء متماثلة ؟ واذا كانت جميعها اباطيل واوهاماً فلماذا نرى النقد العلمي الذي استطاع اسقاط العقائد الخصوصية لم يتمكن من ضعضعة الفكرة الاساسية التي قامت عليها تلك العقائد ؟ ولماذا نرى العقائد الدينية بعد اذ تسقط سقوطاً عظيماً عند امة كما حدث في اواخر القرن الثامن عشر في فرنسا لا تلبث ان تنهض ثانية ان لم يكن بمظهرها الذي كان لها من قبل فبجوهرها القديم يبقى هو نفسه .

الشعور الديني

ثم ان هنالك من يزعم ان الافكار الدينيـة هي من نتائج الشعور الديني فهو الذي يجعل العقل يحوك صوراً وهمية لا يلبث ان يتخذها شيئاً فشيئاً حقـائق راهنة وهؤلاء يعلمون ضمناً بوجود الشعور الديني اذ لا يرون سبيلاً لانكار شعور يحس به السواد الاعظم من بني الانسان وقد كان له اعظم اثر على التمدن في العصور التاريخية وما برح الى عهدنا هذا اساس كثير من النظم الاجتماعية والباعث على كثير من الاعمال

العظيمة المفيدة . إلا ان زعمهم هذا لا يحل المسألة وانما يبعد قليلاً الصعوبة في حلها لانه سواء كان الشعور الديني منشأه الفكر الديني او كان للشعور والفكر مصدر واحد فلا بد لنا ان نسأل : من اين جاءنا هذا الشعور ؟ وجواباً على هذا نجد امامنا احد افتراضين : اما ان يكون هذا الشعور قد خلق دفعة واحدة بفعل خلق خصوصي واما انه نشأ تدريجياً تبعاً لناموس الارتقاء . فاذا اتبعنا الاول الذي اتبعه الاقدمون وعليه اكثر البشر لعهدنا هذا فالمسألة تكون قد حلت اذ يكون الانسان قد منح الشعور الديني من مبدع حكيم فهو منطبق اذاً على مقاصد هذا المبدع . وان اتبعنا الافتراض الثاني وسلمنا بما يوجبه مذهب الارتقاء من ان القوى هي نتيجة التحولات العديدة التي طرأت على الانسان بفعل المؤثرات والاحوال الخارجية عليه تعين ان نسلم بوجود احوال خصوصية أوجبت نشأة الشعور الديني . ومن ثم يكون حكمه حكم سائر القوى النفسية . واذا صح ايضاً ما يوجبه مذهب الارتقاء من ان الغاية التي تتوجه اليها التحولات الارتقائية هي اعداد الحي لاستكمال ما هو من لوازم وجوده امكننا ان نستنتج من هذا ان الشعور الديني من البواعث المؤدية لسعادة البشر . اذن فسواء كان الشعور الديني خلق دفعة واحدة او نشأ تبعاً لناموس الارتقاء فالنتيجة من كلا الافتراضين توجب علينا احترام الشعور الديني .

اتجاه العقل الى ما وراء حدود العلم

وهنالك ملاحظة اخرى لا ينبغي ان نضرب صفحاً عنها وهي ان العلم مهما اتسعت دائرة اكتشافاته فهو عاجز عن ان يروي كل الارواء ظمأ العقل البشري الى المعرفة . فمهما أمعنا في الاكتشاف العلمي فانه يبقى لدينا ولدى من يأتي بعدنا مسألة وهي : ماذا يوجد بعد ذلك ؟ ومهما تقدمنا في التعليل عن اصل الكائنات فلا يمكننا ان نجد مناصاً من هذا السؤال : ما الذي يعلل لنا التعليل نفسه ؟ فاذا كان العلم أشبه بدائرة تتسع شيئاً فشيئاً فنموه لا يكون من شأنه إلا ان يزيد فقط اتصاله بالمجهول الذي يساوره من كل جانب . ويترتب على هذا انه يوجد على الدوام طريقان ينتهجهما الفكر البشري وهما العلم والدين .

اذن فالعقل سيشتغل في المستقبل كما يشتغل في الحال ليس فقط في البحث عن الحوادث الوضعية وعلائقها بعضها ببعض بل بشيء لا يستطاع اثباته بالادلة الواقعة تحت الحواس ولا بد من افتراض وجوده عند النظر الى الحوادث واعتبار علائقها بعضها ببعض . وينتج عن هذا انه ما دام العلم لا يستطيع وحده ان يشغل جميع القوى الانسانية ، وما دام العقل يوجه انتباهه ابداً الى ما وراء حدود العلم فسيبقى محل للدين على الدوام لان الدين يمتاز بكون موضوعه وراء دائرة العلم والاختبار .

وصفوة القول ان وجود الافكار الدينية عند جميع الامم ونشأتها مستقلة بعضها عن بعض وحيويتها المستمرة في المجتمع الانساني ووجود الشعور الديني اياً كان منشأه واتجاه الفكر الى ما وراء حدود العلم — كل هذا من شأنه ان يثبت ان للدين اصولاً عميقة في الانسان لا سطحية كما يتوهم البعض ويدل على ان هنالك حقيقة اساسية قام عليها بنيان الاديان .

صناعة الأثاث [1]
في مصر

لمحة تاريخية

يمكن القـول بأن استعمال اثاث المساكن يرجع الى العهد الذي بزغت فيه انوار الحضارة في العالم فقد كان الجنس البشري في العصور السابقة للتاريخ يأوي الى المغاور والـكهوف حيث يفترش الثرى ولم يكن يعرف شيئاً عما نسميه اليوم اثاث المساكن .

وتدل الابحاث العلمية على ان الآثار الاولى لأثاث المساكن وجدت في مصر لان هـذه البلاد بلغت منتهى الحضارة يوم كانت الشعوب الاخرى تتسكع في دياجير الظلمة متقهقرة في احوالهـا الاجتماعية والسياسية . هذا الى ان الفن المصري بدأ كاملاً منذ ظهوره فقد جمع

(۱) من تقرير قدمه الى اللجنة الدائمة لصناعة الاثاث بوزارة التجـارة والصناعة في ابريل سنة ۱۹۳۷

بين روح الحقيقة ومظهرها وبين التجانس في الالوان . واكتمل تنظيمه بازياء كهنوتية قضى بها المأثور من احاديث هذا الشعب المتدين وتوجد اليوم في المتاحف نماذج لكراسي مصنوعة من الخشب ومرصعة بالعاج والابنوس مع مقاعد من الخيزران متينة الحبك والجدل ويمكن تدبر طراز الأثاث المصري من الآثار التي استكشفت في المدافن وهي تدل على نبوغ فني قائم على درس الطبيعة وتفهم اسرارها .

وبعد قرون طويلة ظهر في مصر في العهد العربي الطراز المشبك بالاوراق والازهار والاثمار والطيور والمنسق بالخطوط المتشابكة باحكام هندسي دقيق بديع المنظر فالمنبر الموجود الآن في ضريح السلطان برقوق في القاهرة يعد نموذجاً عظيماً للطراز العربي المزخرف الذي تلألأ وازدهر في فنون النقش والنحت والتصوير ويظهر اثره بنوع خاص من قطع الأثاث الباقية الى ايامنا هذه . على ان البارز في الطراز العربي هو الجمع بين الزخرف والمتشابك فبعض الأثاث المصنوع على الطراز العربي يدل على دقة في الفن ولكن الراحة والرفاهية غير متوفرين فيه ولا يسعنا إلا القول بان مظاهر الفن ومعالمه فيه طمست واندثرت في عهد السيادة العثمانية على مصر .

وكانت حياة قدماء الاغريق قاصرة على الاجتماعات العمومية وكان اثاث مساكنهم غاية في البساطة ولكن صناعة النجارة لم تكن مجهولة عندهم فقد وجد في مدافن امم البربر على شطوط البحر الاسود اثاث

منقول من اثينا فيه من دقة الصنع وحسن الذوق ما يثير الدهشة . على ان حب الزهو والعظمة لم يبلغ في أي عهد ما بلغه في عهد الرومانيين فالأثاث المصنوع من خشب الابانوس كانت له قيمته ومكانته في روما وكان اغنياء ذلك العهد لا يبخلون بالنفيس والغالي لاقتناء المناضد المصنوعة من خشب الليمون ثم جاءت القرون الوسطى فتركت لنا نماذج قليلة إلا انها تثير اعجابنا وأهم الطراز التتري المعروف « بالجوتيكي » هو ما كان خاصاً بالمعابد والامور الدينية .

اما فن الأثاث الاوروبي فقد بلغ اوج عظمته وشارف القمة في روعته وكماله في القرن السادس عشر وهو عهد النهضة الاوروبية فقد بدأ هذا الفن يزهو ويزدهر في ايطاليا ثم تكامل ازدهاره وجماله في فرنسا بحيث عدّ هذا العهد سيد عهود النحت في الخشب . ويمتاز اثاث النهضة بصنعه ومتانته ولمنظره أبهة وروعة تتفقان وسعة القاعات التي كانت تحتويها .

وفي عهد الملك لويس الرابع عشر أي في القرن السابع عشر بلغ فن الزخرفة والطراز الفخم الطريف أوجها وكان « بول » اشهر رجال ذلك العصر في فن نجارة الابانوس فهو الذي ابتكر بذهنيته الخالقة ونبوغه المبدع اثاثاً مصفحاً بنحاس كان ينقشه بمهارة غريبة هذا الى انه خلق نهضة عظيمة في صنع الأثاث المصفح وأثار الحماس في هذه النهضة . على ان فن نجارة الابانوس شارف القمة وبلغ الغاية في القرن الثامن عشر

الذي دعي بحق قرن الاناقة الخلابة والطراز الفاتن ففيه ساد روح التأنق والبذخ جميع طبقات المجتمع الانساني وقام العصاميون الذين أحرزوا الثروات الكبيرة بالعمل والتجارة يسابقون النبلاء والاشراف في البذل والاسراف لاقتناء انفس الأثاث لدورهم .

اما لفظة ابانوسي المسكنى بها نجارو الابانوس فراجعة الى ان الابانوس كان يستعمل في صنع الأثاث الانيق النفيس وكان يقتضي صنعه دقة ومهارة بحيث كانت تتضافر قوى العمال والمساعدين الاخصائيين على صناعته لصلابته . على ان هذا الصنف اهمل فيما بعد واستعيض عنه بالسنديان والجوز والموغانو والياليساندر والايرابل وغير ذلك .

وفي القرن الثامن عشر ظهر طراز لويس السادس عشر الذي يستوقف الانظار بما امتاز به من نفيس المواد وبديع الشكل وطريف البرونز المنقوش وبما توفر فيه من مصنوعات الفنانين النابغين الذين ظهروا في ذلك القرن وأبدعوا من الأثاث ما بلغ أعلى درجات الفن اناقة وكمالاً ودقة صناعة .

ويعد جان هنري ريسنر في طليعة نجاري الابانوس في ذلك العصر . ومن آثار هذا الفنان النابغة مكتب الملك لويس السادس عشر الذي استغرق صنعه ثماني سنوات فجاء آية في الابداع . وقد ترك ريسنر هذا اشكالاً كثيرة وشق طرقاً جديدة في الفن وأحدث فيه بدعاً لا عهد

بها لسابقيه . ولعل ما يثير الدهشة والاعجاب في مصنوعاته تنسيقها وانسجامها ووضعها المنزه عن كل عيب بالقطع . والخطوط في شتى الأثاث الذي صنعه نفيسة كلها متناسقة تدل على لباقة وروح فنية عالية . هذا الى ان الزخارف التي حلّى بها اطارات الأثاث غاية في دقة الفن . والنقش على البرونز المركب عليها يعد مثالاً أعلى للفنانين .

اما في القرن التاسع عشر فقد اندثرت معالم النقش في مطلعه وهدأت حركة الفن ، على ان الطراز الامبراطوري ما لبث ان ظهر بعد ذلك فكان خلواً من كل ابداع حتى لقد كانت فيه عيوب كثيرة أخصها الضخامة والافتقار الى الروعة وحسن الرونق . وقد صنع في ذلك العهد اثاث كثير مجرد من جمال الصناعة فلم يترك أي اثر في تاريخ فن الأثاث . على انه لم يمضِ غير قليل من الزمن حتى حدث رد فعل وكان ذلك في اواسط القرن التاسع عشر فقد عني الفنانون بتقليد النماذج الفنية العديدة التي خلفها الماضي فلم يلبث الذوق الفني ان تطهر وسار نجارو الابانوس على الطرق التي رسمها اعلام الفن الذين سبقوهم فاجادوا فيما نقلوه ولكنهم لم يدركوا شأو اسلافهم .

ونحن اليوم وقد اخذنا بمبدأ اختيار الاحسن يدهشنا ما خلفته العصور الماضية من فن دقيق رائع ويثير اعجابنا الذوق المهذب ونسعى الى الحصول على المنقول منه اذا لم يكن في مقدورنا المالي اقتناء الاصل وكثيراً ما نجتهد لنكون مجددين نخلق لعصرنا الحاضر طرازاً فنياً خاصاً

يعرف به وينطابق على نوع حياته بنسبة مساكننا الصغيرة. نعم يوجد طراز حديث امتاز بالبساطة وتجنب الزخرفة بنقاء خطوطه واتساقها ولكن هذا الطراز لا يزال مجداً ليستقر على حال وهو الى الآن لم يتخذ طابعه النهائي. والفن كما لا يخفى يتجدد على توالي العصور.

مستقبل صناعة الاثاث في مصر

وقد اخذت صناعة الاثاث تنتشر في مصر منذ سنوات قليلة انتشاراً عظيماً وبخاصة بعد وضع النظام الجمركي الجديد. ومعظم الاثاث المستعمل في هذه البلاد مصنوع فيها وقد تضاءل الوارد من الخارج كثيراً بالنسبة الى ما كان عليه في العهد السابق بتأثير الضائقة المالية. ويرجع انتشار صناعة الاثاث في مصر الى اسباب شتى نجمل اهمها فيما يلي:

١ — المكوس الجمركية — مما لا ريب فيه ان المكوس الجمركية التي فرضت على الاثاث المستورد من الخارج جعلت وارداته تنقص تدريجياً وافضى ذلك الى ظهور الصناعة الوطنية وأوجد مجالاً فسيحاً لنشاطها. وقد كان الاثاث المصري فيما مضى غاية في البساطة اما اليوم فقد انتشر حب التأنق والرفاهية بين جميع الطبقات حتى المتوسطة الحال بحيث صار الاثاث ضرورة من الضرورات لا نوعاً من الكماليات

فساعد ذلك على رواج صناعة الاثاث وزادها رواجاً نقص الوارد من الخارج .

٢ — روح المحاكاة والتشبه — اذا كانت روح البداهة والاستنباط مفقودة لدى النجارين ومساعديهم في مصر فان روح المحاكاة والتشبه والنقل مستكنة فيهم فانهم يتفهمون بسرعة اوضاع النجارة الاوروبية وطرقها ويقتبسونها وينقلونها في مهارة هذا الى ان العامل المصري نابه نشيط لا يأنف ولا يمل فلو احسنت ادارته وتوفرت ثقافته لما تأخر ان يوجه لصناعته عناية خاصة ويعير دقائقها الهامة اهتماماً عظيماً .

٣ — استعمال الكونتر بلاكيه — ان انتشار الكونتر بلاكيه في مصر قد ساعد فعلاً على انتشار صناعة الاثاث فيها لان الكونتر بلاكيه يكون مادة محضرة فلا يحتاج الى شيء سوى ان يركب في مكانه . واثمانه النسبية غير باهظة والصناعة لا تفقده من حجمه إلا الطفيف التافه فضلاً عما في استعماله من وفر كبير في الوقت والجهد والمال . فبقليل من الصقل والطلاء يمكن صنع اثاث الكونتر بلاكيه الذي لا يخلو ظاهره من الزهو والاناقة . نقول ظاهره لانه يجب على القطر المصري الآن إلا في احوال استثنائية ان يقصر مطامعه على عمل الاثاث الصناعي لانه رغم ما فيه من عمال لا يوجد فيه نجارون حقيقيون لصناعة الاثاث .

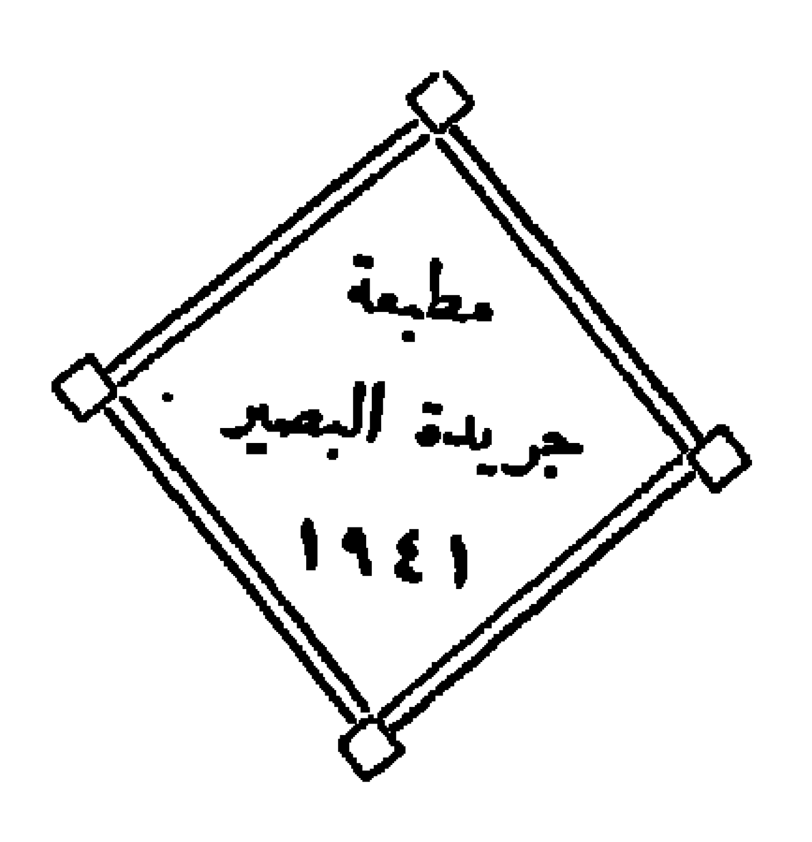
ومما لا شك فيه ان تجارة الاثاث فن يستلزم مراناً طويلاً

ويقتضي خبرة تامة واسعة فاذا كان نجارو الاثاث في القرن الثامن عشر قد اثاروا اعجابنا فلأن مصنوعاتهم كانت دقيقة متناسقة منسجمة قائمة على احاطة تامة بقواعد الفن واصوله . وليس كل من يريد ان يكون نجاراً للاثاث يصير نجاراً ماهراً لأن صناعة النجارة قاصرة على فئة تمكنت من اتقانها بالخبرة والمران الطويلين كذلك لا يستطيع ان يكون استاذاً فيها إلا من استطاع ان ينتج مثالاً يشهد المحكمون الفنيون انه ينهض على قاعدة صحيحة من دقة الفن وروعته .

وقد كان نجار الاثاث يعيش في جو الفن الهادىء ويقبل على صناعته بشغف وكان يدرس اعمال اسلافه فينقل منها ما يستسيغه ويجتهد في تحسينه كذلك كان يطلب اليه ان يبدع في ما يصنع حتى يكون لفنه طابع خاص . هذا الى ان عمله لم يكن يتناول الخشب فقط بل النحاس ايضاً . وكل ما نشهده اليوم من مصنوعات الفنيين القدماء وما تنطوي عليه من دقة الفن وسلامة الذوق يدل على عقلية مبدعة وذهنية خالقة وصبر ومثابرة . فقد كان الوقت بالنسبة لصانع الاثاث امراً ثانوياً فكان يكرس لعمله الشهور والاعوام وكان يعاونه في عمله عمال اخصائيون يحيطون بمبادىء صناعتهم يقوم على تدريبهم اساتذة ملمون بدقائق الفن. وهذه العناصر كلها مجتمعة قد جعلت لهذا الفن تقاليده واوجدت التضامن الذي يربط اعضاء اسرة النجارين بعضهم ببعض ارتباطاً وثيقاً . وكان لهذا كله الفضل في بلوغ هذه الصناعة القمة ومشارفتها الذروة..

فهرس الكتاب

صفحة


مطبعة
جريدة البصير
١٩٤١


مطبعة
جريدة البصير
١٩٤١

